خالد القشطيني
من أجل السلام والإسلام
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING

من أجل السلام والإسلام

خالد القشطيني

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L.

دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2439-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING
عمان، تلاع العلي، شارع رافع عثمان
بناية نصار أبو ركبة
هاتف: 790343552 - 65548621 (2-961+)

توزيع
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http: //www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت – هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت – هاتف (+9611) 786233

هذا الكتـاب

هذه مجموعة من المحاضرات والدراسات والمقالات، والكثير منها مما نشرته صحيفة الشرق الاوسط عبر سنوات طويلة. جمعتها استجابة لاقتراح دار العرب للنشر لغرض واحد هو دعم الاعتدال والحوار والانسجام بين الطوائف والقوميات ودحر العصبية والتشدد والتطرف والارهاب والعنف. إنني من المؤمنين بالتطور المرحلي واحترام الرأي الآخر واعتماد اللاعنف، او الجهاد المدني، في السعي والجهاد من اجل العدالة وحقوق الانسان.

وارجو ان اكون قد ساهمت ولو بهذا القليل من اجل هذه الاهداف النبيلة.

أبعاد النزاع الطائفي في العراق

ينظر الكثيرون الى ما يجري الآن في العراق من منازعات طائفية على انها نتيجة لصراع عقائدي يرتبط بأحقية الخلافة وما اذا كان ابو بكر او الامام علي احق بها وكذلك بعض الفروق في تطبيقات الشريعة الاسلامية وبعض الطقوس الشكلية. الأمر ليس كذلك فهذه النقاط امور ثانوية تتفرع عن مواضيع اوسع واكبر واخطر بكثير. معظم الناس في العراق شيعة او سنة لا يعرفون تفاصيل النزاع على الخلافة ولم يسمعوا قط بموضوع السقيفة ولا يعبؤن اساسا بقضية مرت عليها مئات السنين. يشارك السنيون زملائهم الشيعة في محبة آل البيت، ولو بدرجة اقل. تراهم يحضرون المواكب والتعازي الحسينية ويزورون العتبات الشيعية في كربلاء والنجف والكوفة وسامراء. ويقدمون النذور اليها. الزواج المختلط بين الطائفتين شائع جدا. والاختلافات بين تطبيقات الشريعة لا تهم احدا فتراهم يغيرون انتمائهم الطائفي لأغراض مصلحية، غالبا ما تتعلق بالارث والطلاق، بكل يسر وعدم اكتراث. ولم اسمع عن اي شيعي يمارس زواج المتعة في العراق. وقلما وقعت تاريخيا أي مصادمات دموية بين الطائفتين. واعتادوا على العيش سوية جنبا الى جنب. تفاجأ الكثيرون في هذه الايام بما سمعوا عن الاقتتال الجاري منذ سقوط صدام حسين واستغربوا من امره.

ومع ذلك فلهذا النزاع جذور عميقة، ولكنها ابعد ما تكون عن العقيدة او الدين. إنها عوامل جيوفيزيائية واقتصادية. يبدأ جورج روكس كتابه القيم "العراق القديم" بقوله ان كل تاريخ وحضارة هذا البلد توقفت على وضعه الجيوفيزيائي ومكانه في خارطة المنطقة. ليس لهذه الدولة الكبيرة، ايران، منفذ للبحر المتوسط، المسرح التاريخي لمعظم المنازعات والحروب. السواحل الايرانية على الخليج صعبة الملاحة وعسيرة الموصلات وبعيدة عن المراكز الرئيسة في ايران، الأمر الذي اضطر الحكومة الايرانية في السنوات الاخيرة لمد سكة حديد بكلفة باهضة من طهران الى بندر عباس على الخليج. شط العرب هو المنفذ الرئيسي والبعيد ويسيطر عليه العرب ولا ينفع للتجارة مع الغرب والعالم العربي (باستثناء الجنوب). منذ ان اصبحت ايران دولة امبراطورية اعتمدت اولا على "الطريق الملكي" الممتد من شوشة الى ازمير في جنوب تركيا. ظهرت الحاجة لموطيء قدم على البحر المتوسط وطريق سالك عبر وادي الرافدين وبلاد الشام تستطيع السيطرة عليه.

جرها ذلك الى حروب متواصلة وضارية ضد بابل ومصر ثم الاغريق فالرومان، فالبيزنطيين فالعثمانيين واخيرا العراقيين في عهد صدام حسين. ويلوح لي انه قد يجرها للاصطدام الآن باسرائيل

ويفسر تهديداتها لها وتحالفها مع حزب الله في جنوب لبنان.

هذا الطريق الموازي لطريق الحرير التاريخي، هو شريان الحياة لايران ولكنه يمر بالعراق وسوريا ولبنان. اقتضى ذلك اعتمادها على حسن نية هذه الدول وتحملها تكاليف اضافية لنقل وحماية صادراتها ومستورداتها عبر تجار وعمال اجانب. اقتضى عليها دفع عمولات وعلاوات ورشوات باهضة كما تعرضت للتلف ولقطاع الطرق والمهربين ورسوم الترانسيت. اغتنت عوائل عراقية كثيرة من هذه العمليات. قيل ان عبد الكريم قاسم استغرب واعترض على كمية الشاي المستورد للعراق. بيد ان وزير التجارة افهمه بأنها بضاعة لاعادة التصدير لايران بما يدر على العراق بدخل اضافي. ولا شك ان الحكومة الايرانية ظلت تتمنى وضع يدها على هذا الطريق.

وبعد ان تشيعت ايران في القرن السادس عشر، ظهرت حاجة الايرانيين لزيارة العتبات المقدسة في العراق وتقديم النذور اليها ودفن موتاهم بجوار الامام علي في وادي السلام. ترتب على ذلك نزيف آخر للعملة الايرانية بما اضطر الشاه في الثلاثينات الى منع تصدير الموتى الى العراق. وكل ذلك بالاضافة للحاجة الى استعمال العراق كقاعدة للحجيج الى مكة المكرمة.

في 539 استطاع الملك كورش احتلال بابل والزحف نحو البحر المتوسط. ومنذ ذلك الحين حتى الفتح الاسلامي بقي العراق في حكم الفرس الذين بنوا عاصمتهم الشتوية في طيسفون بجانب بغداد. اعتادوا على نقل حكومتهم اليها في فصل الشتاء. شقوا الانهار والترع وحولوا البلاد الى جنة خضراء. ولا عجب ان بقي الايرانيون يحنون للعودة لاحتلالها وحكمها. غير ان البلاد ظلت تحت حكم العرب حتى سقوط بغداد على يد هولاكو ثم آلت بيد العثمانيين بعد ذلك.

احتلال آل عثمان للعراق ووقوع ايران بيد الصفويين اصبح سببا رئيسيا للانقسام الطائفي. ظل الطرفان يتنازعان على بغداد وخاضا حروبا متعددة لهذا الغرض. تبنى العثمانيون السنة وتبنى الايرانيون الشيعة. فما كان لاهل بغداد غير ان ينشدوا "بين العجم والروم (العثمانيين) بلوى ابتلينا!" يورد الدكتور الوردي في كتابه الموسوعي "لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث" الكثير من تفاصيل ذلك.

من نتائج هذا الصراع ان تشكك العثمانيون في ولاء الشيعة واعتمدوا على السنة الحنفيين في الجيش والادارة. ولما كانت القوانين العثمانية (المجلة والعقوبات والاحوال الخاصة) تقوم على الشريعة الحنفية فقد اصبح من الطبيعي ان يحصروا مهنة القضاء في الحنفيين. وهكذا تدرب ابناء السنة على قيادة الجيش والشرطة والادارة والقضاء. وعندما انتهى الحكم التركي واقيمت المملكة العراقية لم يجد

الانجليز والملك فيصل احدا مؤهلا لإشغال المناصب في هذه الميادين غير السنة. فامتلأت الدولة بهم.

ماذا عن الشيعة؟ ادركوا ان الدولة العثمانية لا تعتمد عليهم ولا تعطيهم فرصة في هذه الميادين. توجهوا الى التجارة وبعض الزراعة والاعمال الحرفية. كان جل الصفارين في سوق الصفافيرمن الشيعة.

بنتيجة هذا التقسيم المهني، تفرغت العوائل السنية الى تعليم اولادهم وارسالهم الى اسطنبول واحيانا لاوربا للحصول على الشهادات والاختصاصات تمهيدا لاستلامهم الوظائف والمناصب في الدولة. هكذا اصبحوا قائمقاميين ومتصرفين وقادة في الجيش والشرطة واطباء ومحامين ومعلمين.

لم تجد العوائل الشيعية جدوى من وراء ذلك. فالدولة لا تثق بهم ولا تعطيهم مناصب فيها. من رغب في التعلم والدراسة ذهب الى النجف الاشرف لتلقي العلوم الدينية، الفقه واللغة والشعر والشريعة الاسلامية وهكذا. فبينما تلقى ابناء السنة العلوم الدنيوية تلقى ابناء الشيعة العلوم الدينية. تخرج منهم كل ؤلئك العلماء في الدين الذين اشغلوا المرجعيات، والشعراء الذين اغنوا الادب الحديث، الجواهري وبحر العلوم والشبيبي وعلي الشرقي وسواهم.

ماذا عن خريجي النجف الآخرين؟ اشغلوا ما سمي بوظيفة "المومن" فلبسوا العمائم وراحوا يكسبون قوت يومهم في القرى والارياف، يعلمون القرويين دينهم والمذهب الشيعي ويقومون بعزاء الحسين ويقضون حاجات البسطاء بأبسط ما يمكن من وسائل. قدر لعملهم هذا ان يقلب موازين القوى في العراق. ما قاموا به كان عملية تبشيرية بالمذهب الجعفري. تمكنوا بمرور السنين ان حولوا الكثير من العشائر من المذهب السني الى المذهب الشيعي بحيث اصبح الشيعة في الثلاثينات يكونون الاكثرية في البلاد. ولا شك ان الجوانب العاطفية والدرامائية من طقوسهم المرتبطة بمقتل الحسين قد ساعدتهم في مهمتهم. يذكر الباحث احمد هاشم الغانمي ان العثمانيين فتحوا لهم المجال لاسباب سياسية منها الوقوف في وجه الوهابيين. لم يقم السنة بأي مجهود في هذا الاطار. كانت الدولة بيدهم وكفى. قضوا وقتهم في التآمر على بعضهم البعض حتى فلتت من يدهم.

عندما قامت الثورة العربية، انسلخ بعض الضباط العراقيين، نوري السعيد والهاشمي والعسكري والمدفعي وطاهر عارف وعبد الرحمن عارف وسواهم (كلهم سنة طبعا) من الجيش العثماني والتحقوا بالثورة وصاحبوا الامير (الملك فيما بعد) فيصل في الزحف على دمشق. اصبح من الطبيعي للملك فيصل ان يكافأهم على دورهم

فأشغلوا قيادة الجيش والشرطة. لم يكن بينهم شيعي واحد. وكذلك لم يشارك اي شيعي في الجمعيات الوطنية العربية السرية التي تشكلت في اوربا خلال العهد العثماني، كجمعية العهد. اقتصر الدور العراقي فيها على السنة كتوفيق السويدي، فعادوا متأثرين ومزودين بالثقافة المعاصرة وبالتالي الاهلية للحكم.

وهكذا فعندما تأسست المملكة العراقية تحت الانتداب البريطاني في 1920 لم يجد الملك ولا الانجليز غير عدد قليل جدا من الشيعة مؤهلا تأهيلا معاصرا لمهمات الدولة فملؤها بالسنة واليهود. لم يكن هناك غير شيعي واحد بين ثمان وزراء في اول حكومة مؤقتة (عبد الرزاق الحسني، الثورة العراقية الكبرى، ص250) لكنهم شعروا بهذا النقص ففتحوا دورة سريعة لعدة اشهر لدراسة القانون والادارة لآبناء الشيعة واعطوهم شهادات حقوق مكنتهم من استلام بعض الوظائف. كان صالح جبر واحدا من هؤلاء فدخل سلك الادارة وارتقى حتى اصبح رئيسا للوزراء في الاربعينات.

تعاظم النقص الشيعي في الدولة ايضا بسبب الفتاوى التي صدرت من النجف بتكفير الحكومة الفتية وكل من يعمل فيها. لابد ان ساهم ذلك ايضا في تردد المتعلمين من الشيعة في قبول اي وظيفة فيها وتركوا الابواب مفتوحة لغيرهم. السوآل الآن لماذا اصدرت النجف هذه الفتاوى؟

يجرنا الجواب على هذا السوآل مرة اخرى لموضوع ايران. فعندما انتهت الحرب العظمى بانهيار الامبراطورية العثمانية، سارعت الدول الى اقتسام تركتها. بدأ الشاه بأخذ نصيبه منها بابتلاع الاحواز (عربستان) بعد دعوة اميرها الشيخ خزعل الى طهران ثم اعتقاله واخيرا اغتياله واعلان ضم الاحواز رسميا الى ايران في 1925.

ثم حول انظاره الى العراق. فرفض الاعتراف باستقلال العراق او اقامة الانتداب

البريطاني فيها، معتبرا كل ذلك غير شرعي. وبما عرف من النفوذ الايراني في النجف لابد ان اوعز لمشايخها (والكثير منهم، ربما اكثرهم، ينتمون لجذور فارسية كما تدل اسماؤهم) بعدم الاعتراف بالحكم الجديد وتكفير كل من يخدمه. كان علماء النجف، وعلى رأسهم محمد تقي الشيرازي قد تكاتبوا مع الشريف حسين يحثونه على الثورة ويدعونه لارسال احد ابنائه للعراق. ولكنهم سرعان ما قلبوا ظهر المجن لأبنه فيصل عندما جائهم في 1920. يذكر حسين الشامي في كتابه "المرجعية الدينية" ان فتوى مشتركة من الاصفهاني والخالصي والنائيني قد صدرت تدعوا لمقاطعة الانتخاب الذي دعى اليه فيصل: "من دخل فيه او ساعد عليه فهو كمن حارب الله ورسوله واوليائه!"

ايه يا رسول الله! كم من المآسي والمهازل مثلت بإسمك!

و دعت المرجعيات بعد ذلك الى تحريم العمل للحكومة الجديدة في كل مؤسساتها ومصارفها العامة ومدارسها ووصف الشيرازي الوظيفة الحكومية المفسدة غير شرعي. بلغ الأمر حتى تحريم دفن المشاركين فيها في مقابر المسلمين.

ما السر في هذا التحول؟ رأى المؤرخون السنة ان المرجعيات وقفت هذا الموقف لأن الانتخابات رتبت بحيث لا تعطيهم الهيمنة على البلاد، كما اعطتهم اليوم. بيد انني ارى ما هو اكثر من ذلك. لقد ايدوا ثورة الحسين ودعوه لارسال ابنه للعراق لأنها كانت ثورة ضد الاتراك السنة، اعداء ايران، عدو عدوي صديقي. ثم قلبوا ظهر المجن بعد سقوط العراق بيد الانجليز. اعلنوا الثورة ضدهم ورفعوا شعار "لا مفاوضات قبل الجلاء". فبإخراج الانجليز ايضا بعد خروج الاتراك يصبح العراق فراغا فاغرا تملأه ايران بيسر، على نحو ما حلم به الشاه. لم تسمح لهم انكلترا بذلك.

استمر هذا الوضع حتى عام 1932 عندما اعلنت عصبة الامم قبول العراق عضوا فيها. ضغط الانكليز على طهران عندئذ لتعترف بالأمر الواقع وهو ما تم. ولكن بعد فوات الاوان بالنسبة لشيعة العراق. وجدوا ان القطار قد فاتهم.

بعد ان غسل الشاه يديه من العراق، اثار موضوع المطالبة بالجانب الشرقي من شط العرب عام 1936. رفضت بغداد ذلك وتأزم الوضع بين الدولتين الى ان اشرف على خوض حرب بين الجانبين، تدخل الانكليز مرة اخرى واقناع طهران بقبول حل وسط اعطاها جزء آخر من الشط.

بيد ان هذا النزاع المستمر مع ايران غرس في اذهان المسؤولين العراقيين بأن الدولتين لابد ان تخوضا حربا عاجلا ام آجلا. وهو ما حدث طبعا عام 1980. عاد المسؤولون السنة الى الخوف العثماني من ولاء الشيعة في مثل هذا المعترك. قرروا إبعادهم من قيادات الجيش والشرطة واجهزة الأمن والمخابرات، والى حد ما من وزارة الخارجية ايضا. وبذلك تعمقت الهيمنة السنية على هذه المراكز.

لعبت روح القبلية والتضامن العائلي التقليدي عندنا والمتمثل بفكرة الاقربون اولى بالمعروف، دورها في الموضوع. فعندما عينت الدولة مديرا عاما سنيا، اقتضى عليه تقريب اقاربه واعطائهم مناصب يستحقونها او لا يستحقونها في مديريته. ومارس كل من هؤلاء ايضا هذه الروح وجاء بأقاربه. هكذا ساهمت فكرة المحسوبية هذه في توسيع الغلبة السنية في الوظائف.

بفعل روح التآمر والكيد والخيانة ايضا، رأى المسؤولون ان خير وسيلة للتأمين ضد ذلك هي ان يحيطوا انفسهم بإخوانهم واقاربهم. ابدع صدام حسين في الاعتماد على ذلك فأحاط نفسه بأخوته وابناء

عمه واستطاع بذلك ان يضمن بقائه اكثر من ثلاثين سنة.

من الطبيعي ان يشعر الشيعة بالاستياء من كل ذلك ويطالبون بحقوقهم في الدولة، ولاسيما بعد ان اصبحت الوظيفة المنفذ الرئيسي لكسب العيش بين ابناء الطبقة المتوسطة. زادت تلك المشاعر بعد تدفق واردات النفط بالملايين والمليارات وتعاظمت العركة على الكعكة. ولكن الشكوى والموضوع من اساسه لا يرتبط في العراق بالمعتقدات والطقوس الدينية. لقد تفجرت الطائفية بنتيجة ظروف تاريخية كما رأينا.

سعت الحكومات المتعاقبة لمعالجة هذه الوضع فتسلم اربعة من الشيعة رآسة الوزراء. واصبحت الامتحانات سرية للغاية وتوقف الدخول للكليات والحصول على البعثات على ما حزت عليه من الدرجات. وتألف مجلس الخدمة للنظر في اختيار الموظفين حسب امتحانات ومقابلات سرية لا سلطة للوزير عليها. وبهذا سار العراق تدريجيا نحو المساواة الحقيقية في النصيب من الدولة. لم يكن صدام حسين حامي حمى السنة. ما كان يهمه هو امنه وسلامته فأحاط نفسه بأقاربه لا لأنهم سنة وانما لأنهم اقاربه لا يتآمرون عليه. هناك الآن شتى الارقام التي تكشف عن تمثيل مكثف للشيعة في حزب البعث. ذكر صدام حسين للمخابرات الامريكية (اف. بي. آي) انهم كانوا يمثلون الاكثرية في الحزب عام 1963 وتولى شيعي رآسة الحزب (راجع المذكرات في صحيفة الشرق الاوسط 2006) وتعاظم وجودهم في الوظائف. فتك بحزب الدعوة لا لأنهم شيعة وإنما لسعيهم للاطاحة به. والواقع انه قام بأكثر من ذلك ضد القوميين والكورد السنة بل وحتى البعثيين. كل ما كان يقوم به من خروقات مبعثه الحفاظ على سلامته ولا يمت للدين او الطائفة بأي صلة. اعتمد في كل شيء على طارق عزيز لمجرد انه كان مسيحيا لا يستطيع ان يأخذ الحكم منه.

إن قانون الاستمرارية الذي يسري في علم الفيزياء ينطبق ايضا على علم السياسة، كما لاحظ لنين بالنسبة لمشاكل الاتحاد السوفيتي. فجل ما وقع خلال العهد الملكي في هذا الموضوع جاء بمثابة استمرارية لما خلفه العثمانيون من تركة وما ترتب على نزاعهم مع ايران.

من الملاحظ ان العراقيين اقل الناس ايمانا بالدين، وهي ظاهرة تمتد الى ايام سومر وبابل. وخلال الحرب العالمية الثانية ودخول الاتحاد السوفيتي في الحرب بجانب الحلفاء، فسح المجال للحزب الشيوعي واليساريين عموما للنشاط فانتشر الفكر الماركسي والوجودي والبعثي بين المثقفين والعمال واصبحت الامور الطائفية والدينية لا تلقى من الجمهور غير السخرية. تعاظم هذا الاتجاه في عهد عبد الكريم قاسم. غير ان انقلاب 1963 وما تبعه من تصفيات لليسار العراقي اضعف الروح

العلمانية وفتح المجال للغيبيات والتراثيات. وبعد انهيار الشيوعية والاشتراكية عالميا وفشل الوحدة العربية والحركة القومية في العالم العربي فسح المجال لما سمي بالصحوة الاسلامية. وعاد الدين ليلعب دورا اساسيا في تفكير الناس. ولكنه جر في اذياله شتى التشققات والخلافات ومنها الطائفية.

وهنا نأتي اخيرا لدور اسرائيل في هذا الموضوع. لا يتخوف الاسرائيليون من دولة عربية كما يتخوفون من العراق لأسباب كثيرة، منها التأريخية. حرصوا على تمزيق العراق كعدو رئيسي. حدث في عام 1974 ان اشعرت غولدا مئير بول ولفويتز بالخطر الذي تشعر به اسرائيل من تعاظم قوة عراق صدام حسين. فسعوا بما لهم في عهد بوش من تأثير على البيت الابيض والبنتاغون الى اسقاط صدام حسين بغزو العراق. وكان من افكارهم نقل الحكم من السنة الى الشيعة الذين اعتبروهم اقل تحمسا لموضوع فلسطين، كما ذكر لي احد الاكاديميين الاسرائيليين. سعوا لحل الجيش العراقي واجهزة الامن. فتحوا المجال لصياغة دستور وديمقراطية تعطي الاكثرية للشيعة وتمهد لتقسيم البلاد. وبتدفق واردات النفط بالمليارات دون حساب او كتاب تفاقمت العركة على الكعكة. وشاع النهب والفساد. فلأول مرة وجدوا خزينة البلاد بأيديهم. جاء دور السنة الآن ليشعروا بالحيف. ومن جانبهم سعى الشيعة لدعم مركزهم ومكاسبهم بتشجيع الروح الطائفية وترويج الافكار والممارسات السلفية والاستنجاد بمرجعية النجف في كل شيء. ولعبت ايران دورا مهما في هذه التوجهات.

يتسائل الجميع كيف يمكن التخلص من هذه الطائفية وما تجره من ارهاب وجرائم. الجواب بسيط. هناك 130 مليار دولار يستلمها العراق سنويا من النفط بدون حساب او كتاب او سوآل وجواب. العركة تقوم على اقتسام هذه الكعكة. والشعب العراقي الآن مثل المريض في غرفة الانعاش. لا يقوم بشيء ويتلقى غذائه والاوكسجين من انابيب تصب في شرايينه(عوائد النفط). يعني ذلك ان الحياة تعتمد على الوظائف. وهذا يتطلب العدالة في توزيعها لئلا يشكو مظلوم من ضيمه. ينبغي اعادة الحياة لانظمة الحكم الملكي: اولا الحرص على سرية الامتحانات العامة. ثانيا توزيع البعثات والاماكن في الجامعات حسب الدرجات وفي اطار الشفافية. ثالثا توزيع الوظائف عبر مجلس الخدمة المستقل الذي يتولى الاختيار بسرية حسب المؤهلات والدرجات والامتحان الذي يجريه المجلس بسرية ايضا. ووراء كل ذلك ايضا ينبغي تحاشي زج الخلافات القديمة في مناهج التدريس والتركيزعلى العلوم الحديثة والفكر العلماني. وللحصول على برلمانات كفوئة وناضجة في دول متخلفة ذات نسبة عالية من الامية ينبغي حصر حق التصويت في المتعلمين (خريجي المدرسة المتوسطة مثلا). ولكن وفوق كل شيء ينبغي الفصل بين الدولة والدين وخلق نظام علماني عصري. واخيرا هات من يسمع

وضجيج العركة على الكعكة يصم الاذان.

الحذار ثم الحذار من هذا المطب

تواجه المملكة العربية السعودية في هذه الآونة شتى الضغوط والهجمات، لا من أعدائها فقط، بل ومن بعض أصدقائها ومواطنيها.

هذا موضوع خطير يهيب بكل من يسعى لنجاة المصير العربي ومستقبل الشعوب العربية أن ينتبه إليه، ويتخذ الموقف الصحيح تجاهه.

بعد توصل إسرائيل للتصالح مع مصر باتفاقية كامب ديفيد، ثم مع الأردن، وأقامت علاقات مع بعض دول الخليج، تطلعت للوصول إلى مثل ذلك مع السعودية وبذلت جهودا وراء الستار لتحقيق ذلك، وهو أمر مهم جدا لها. فخروج السعودية من المواجهة يعني بالضبط تصفية المسألة الفلسطينية. سرعان ما تبادر بقية الدول العربية والإسلامية للاحتذاء بها وتنقطع المساعدات السعودية للفلسطينيين وينتهي الأمر. ولكن السعودية أدركت خطورة ذلك فأبت وامتنعت.

ما الذي تفعله إسرائيل أمام هذا الصدود؟ إذا لم تفلح بالمغازلة فلتجرب المكايدة، وهو بالضبط ما فعلته وتفعله. إنها تسعى لما سعت إليه في العراق وسوريا ولبنان. وكما حصل في العراق وسوريا ولبنان، تطوع البعض من المضللين لأداء هذه الرسالة مجانا دون أن يفطنوا لأخطارها.

هذا مطب خطير؛ فالسعودية هي البلد الوحيد الباقي في السلة. لسنين طويلة بقيت الملجأ الآمن لمن ضاقت بهم السبل. وأصبحت الكيس السخي لكل من احتاج للمال في النكبات والطوارئ والدعم في أي مسعى مشرف.

فتحت أبوابها لمئات المواطنين العرب والمسلمين ممن تشردوا من أوطانهم. لم تتردد حتى في توظيف ومساعدة عشرات العراقيين الذين هربوا من بطش صدام. آوتهم، بل وعينتهم معلمين في مدارسها.

سلامة السعودية أمر يهمنا جميعا. إنها القطب الذي تفعله. بالطبع هناك الكثير مما لا يرتاح له الليبراليون واليساريون من الممارسات، بيد أن الكثير منهم غير ملمين بالقوى الانتباذية. كل خطوة إلى الأمام تعتبر انتكاسة بالنسبة لذوي الاتجاهات المتشددة.

الإصلاحات جارية، والحكومة حريصة عليها. ولكنني أستشهد بالمثل الإنجليزي: "احذر أن تقلب عربة التفاح". خطوة خطوة، نقلة نقلة. على الراديكاليين الذين يصبون للمجتمع العصري أن يتذكروا أن التخلص من تراث القرون الوسطى استغرق من الأوروبيين خمسة قرون. إذا كان الصبر مفتاح

الفرج فتغيير المجتمع خير تطبيق للمثل.

مهمتي كتابة مقالات فكاهية لا أكثر. ولكن خطورة الموضوع فرضت علي هذه السطور. لقد ابتلينا بهذه النكبات التي مزقت الكثير من أوطاننا، ولسنا بحاجة للمزيد منها. سلامة المملكة العربية السعودية ومواكبة مسيرتها الحثيثة بحذر وتفهم واجب في رقابنا، بل وتجربة جديرة بالدعم والمتابعة. أوضاعنا الراهنة يا سادة مسحت البسمة من وجوهنا والفكاهة من أقلامنا.

حياكم الله يا مسلمي بريطانيا

في هذه الأزمة التي يمر بها العالم الإسلامي انتشرت في العالم فوبيا الخوف من الإسلام Islamphobia التي أدت إلى مضايقة المسلمين في الغرب. سجل المسلمون البريطانيون صفحة رائعة في غسل هذه الشبهة والارتقاء براية "لا إله إلا الله" كراية حضارية سلامية تعتز بها البشرية. حصل ذلك في احتفالات عيد الفطر حين تدفق نحو أربعين ألف مواطن من شتى الجنسيات والديانات لمهرجان العيد في متنزه برجس بارك، شمال إنجلترا، وعدة ألوف لساحة الطرف الأغر، قلب لندن النابض، للاحتفال بالمناسبة. كانت هناك فرق موسيقية وغنائية قدمت خلالها أناشيد دينية ومدائح نبوية بالإضافة إلى المقطوعات الفلكلورية وإيقاعات موسيقى البوب. وبالطبع قد خرج القوم توا من شهر الصيام، فقد عبقت في الجو روائح شتى المشاوي من كباب وكفتة ونقانق، وأكلات الكاري المتنوعة.

نظم في ساحة الطرف الأغر "ممشى القطط" (عروض أزياء) لشتى الملابس الوطنية والفلكلورية والفساتين المبتكرة التصميم. ولكن لمَ ذلك، والكثير من الحضور النسائي تألق بالألوان البهيجة المزدانة بالذهبي والفضي والجواهر. أعطى كل ذلك هذه المهرجانات التي تكررت أيضا في مدن أخرى، حيث وجد المسلمون، مسحة وبهرجة احتفالية كرنفالية تسر الناظرين. رغم ما لوحظ من كدر وقنوط بسبب ما تعرض له إخوانهم في غزة، مما أوحى لبعض الباعة بالإعلان عن تبرعهم بأثمان كل مبيعاتهم لضحاياها.

نقلت وسائل الإعلام البريطانية مشاهد من هذه المهرجانات وأعطتها أمهات الصحف الصدارة في صفحاتها الأولى. الطريف فيها أنها لم تكن مقصورة على المسلمين وإنما حضرها وشارك فيها واستمتع بها سائر المواطنين.

لقد استبشرت فيها بما حملته من مدلولات ودروس. فمهرجانات بهذه الضخامة تتطلب الكثير من التنظيم كتوفير المرافق الصحية ووسائل الإسعاف والطبابة وجمع القمامة ومراقبة الأمن بالإضافة لكل المعدات الإلكترونية اللازمة من صوتيات ومرئيات. وقد أظهر المسلمون هنا كفاءاتهم واستعداداتهم لكل ذلك. بيد أن العنصر المشجع حقا، كان سيادة الأمن والنظام. من المعتاد للمهرجانات الكبرى أن يشوبها كثير من الأعمال الإجرامية، نشل وسرقات واعتداءات ومصادمات وأفعال مخلة بالآداب العامة، سكر ومخدرات وعربدات، ونحو ذلك. بيد أن الشرطة البريطانية لم تملك غير أن تعبر عن

ارتياحها للمسلمين لما تميزت به مهرجاناتهم من تمسك بالنظام واحترام للأخلاق والآداب. لم تحصل أي أفعال جنائية.

هذه ميزة مهمة يظهر فيها المسلمون جذورهم الحضارية وتمسكهم بالقانون والنظام وسلوكهم المسالم والمنفتح وقدراتهم على المساهمة وإغناء مجتمعهم الجديد. الإسلام ليس "داعش" ولا "القاعدة" ولا هؤلاء النفر من الأفاقين والإرهابيين. الإسلام دين بناء لا دين تخريب وتهديم. دين حرية وانعتاق ومشاركة، ها هن الفتيات المسلمات يشاركن الحضور بثيابهن البهيجة ومكياجهن الأصيل. لا أحد يعتدي عليهن أو يسألهن أو يملي عليهن. والمسلمون قادرون على التنظيم وتقديم ما يضفي على مجتمعهم من مسرات وحسنات.

خطر المدعين بالدين على الدين

خلال احد استعراضات صدام حسين، وفيما كان الجمهور على الجانبين يهتفون بإسمه: يعيش بطل قادسية صدام، يعيش بطل العروبة والاسلام، يعيش قاهر الاستعمار، الخ، كان احدهم يهتف ويقول "يعيش موحد الاديان!" استغرب زميله من كلامه فقال له، ما هذا يا صاحبي؟ من اين جئت بهذا الكلام؟ كلنا ما زلنا على ديننا، المسلم على دينه، والنصراني على دينه، واليهودي على دينه، من اين جئت بهذا الشعار؟ فأجابه صاحبه هامسا، يا رجل هو خلاّ واحد على دينه؟ ما طلعنا كلنا من ديننا وتساوينا!

تذكرت الحكاية على هامش ما نسمعه في هذه الايام من اعمال داعش وبوكو حرام والقاعدة ونحوها من المنظمات الارهابية الاسلاموية. ستؤدي اعمالهم الى تشكك الانسان بدينه. حَ يطلعون الناس من دينهم! حدثتني احدى قريباتي في العراق ممن نكبوا في الموصل فقالت بكل حرارة واسى: "ياخالد الله سبحانه وتعالى ما بقى يسمع كلامنا ودعانا. نصلي وندعو والله ما يسمع دعانا."

وعلى هذا السياق، التقيت في لندن بصديق لي في شهر رمضان الماضي ووجدته يدخن. استغربت من امره. فقد عهدته مؤمنا صادقا في ايمانه ملتزما بواجبات دينه. سألته ما هذا؟ اراك تدخن سيجارة وانت في رمضان؟ هز كتفيه واجاب: عزيزي ابو نايل. اصارحك. بعد كل ما نسمعه بهالايام عما يجري بإسم الاسلام والدين، ويسرحون ويمرحون ولا احد يحاسبهم، لا واكثرمن ذلك، المسلمون الآخرون يلتحقون بهم ويمدوهم بفلوسهم، بعد ل هذا، ما بقيت اعتقد بشيء.

من المعروف أن الايمان الديني عموما اصبح مهددا في هذا العصر على نطاق عالمي. لم يعد اكثر الغربيين يؤمنون ولا يذهب للكنائس في هذه الايام غير نتفة قليلة جدا من الناس. وراحت الادارة الكنسية تبيع كنائسها بأبخس الاثمان لتصبح كازينوات قمار ودعارة. فالغربيون اصبحوا يصدقون اوراق الكوتشينة اكثر مما يصدقون صفائح الانجيل والتوراة.

هل ستعبر هذه الموجة مياه البحر المتوسط فتصل ديارنا وتغمر مدننا؟ لا اشك قط بأن ما تفعله هذه المنظمات الارهابية والاحزاب والكيانات المدعية بالاسلام ايضا من استهتار بأرواح الناس وتراث المنطقة ومخادعة البسطاء بإدعائات الشهادة في قتل الابرياء والتضحية بالحياة التي كرمنا الله تعالى بها، ستؤدي في آخر المطاف الى زعزعة الايمان في قلوب الناس وعقولهم.

المؤسف في الأمر حقا، ان هذه الزمرة المجرمة تضيع على الاسلام والمسلمين فرصة كبرى

للاعتلاء بدينهم بين الامم وتوسع شأنه عالميا. هناك إقبال كبير على الدين الاسلامي وتراث الاسلام وفلسفته وتعاليمه منذ سنوات. وتضخم الوجود الاسلامي في كل مكان بتدفق الملايين من المسلمين للدول الغربية. بيد ان فضائع الارهابيين وغرامهم بسفك الدماء وهدم التراث اصبح يعكر هذا المد الفكري والروحي للرسالة المحمدية. حتى لا املك غير ان اقول لا حول ولا قوة الا بالل

من شطحات المجتمع العراقي

في هذه الايام التي يجري فيها كل هذا التطاحن المؤسف في العراق بإسم الدين، يغيب عن معرفة الكثيرين، ولاسيما الغرباء عن العراق ان هذا البلد من اقل البلدان الاسلامية مراعاة للدين. وتمتد جذور الشك والتحدي العلماني الى فجر التاريخ، كما تشهد بذلك كثير من المقاطع من ملحمة غلغامش السومرية. وفي العصر العباسي ظهرت مجموعة الشعراء المجان، وعلى رأسهم ابو نوآس، ممن يأبى اكثر الناشرين نشر بعض اشعارهم الالحادية. وتبنى خلفاؤهم مذهب المعتزلة الذي غلّب العقل على النقل وغير ذلك من الامتدادات العلمانية والعقلانية. الزواج المختلط بين الطوائف والاديان ظاهرة شائعة بين العراقيين. وحتى السنوات الاخيرة، كان من الصعب جدا ان تجد احدا منهم يلتزم بالفرائض. فتح كل ذلك الميدان للحزب الشيوعي ليصبح اكبر قوة سياسية في العراق، بل والشرق الاوسط حتى فتك بهم حزب البعث وشردهم.

كثيرا ما تودي هذه الخلفية بالعراقيين الى الوقوع في شتى الشطحات والمطبات. وياما وقعت بمثلها في هذه الصحيفة. كنت اروي في احدى مقالاتي حوارا بين تاجرين. قسم احدهما لزميله واسمه علي فقال له: "وسميك الامام علي بن ابي طالب، انا ما... الخ."

ما نشرت الصحيفة ذلك حتى ثارت ثائرة الكثير من القراء وتوالت الاعتراضات والانتقادات. كيف تكتبون ذلك، فالقسم لا يجوز الا بالله تعالى.

نادى علي رئيس التحرير، كيف يا ابونايل تكتب ذلك وتثير علينا القراء! شرحت له بأن مثل هذا القسم شائع في العراق. وكنت اقتبس كلام احدهم وناقل الكفر ليس بكافر. ثم ذكرت له ما قاله شاعرهم محمد مهدي الجواهري، رجل نجفي تعمم وتخرج من مدرسة النجف الاشرف. القى قصيدة في رثاء صاحبه المناضل الشيوعي جعفر ابو التمن. واقسم فيها قائلا:

قسما بيومك والفرات الجاري

و الثورة الحمراء والثوار!

ها هو شاعر نجفي يقسم بثورة اكتوبر البلشفية والثوار البلاشفة، لنين وستالين! ما رأيك برجل معمم يقسم بالرفيق ستالين؟!

ضحك رئيس التحرير وقال انتو يا العراقيين بلوى بلواكم! اكتب تصحيح واعتذار. فعلت واطلعته عليه بالاشارة للاستعمالات العامية في بغداد. فقال ما ينفع. اكتب غيرها. كتبت. ما ينفع ايضا. قلت

له في الاخير يا عزيزي اكتب انت الاعتذار بلساني وانا انشره. فعل وكتب: آسف على السهو الذي جرى في المقالة الفلانية بنتيجة الخطأ الذي وقعت به الكومبيوتر!

بارك الله بالكومبيوتر! كم من اوزار تحملت عنا ومن الجرائم والسرقات تسترت بها لنا وقامت بها لحسابنا!

المسلمون المنسيون

نحن نعرف ان للفن رسالة. ولكنني لم المس ابعادها واثرها بصورة شخصية كما لمسته عندما ذهبت قبل اشهر لسماع مطربة من الصين. كثيرا ما اعذب نفسي بغريزة الفضولية المتضخمة عندي. اشتريت بطاقة وذهبت لهذه الحفلة. ما ان بدأ الجوق بالعزف والمطربة بالغناء حتى شعرت بأنها جزء مني. كانت تغني بنفس المقامات التي تميزموسيقانا في الشرق الاوسط. كانت تغني كأي مطربة عربية او كردية او تركية. شعرت بأنها كانت تغني في مقام النوى الشائع بيننا. وكانت سيماؤها وقيافتها كسيماء اية فتاة اسطنبولية حسناء. التقيتها بعد الحفلة وسألتها. هذه ليست موسيقى صينية. فمن انت، وما هو غناؤك؟ قالت انا مطربة مسلمة وتركستانية ولا شأن لنا بالصين والصينيين.

ومن حينها، تحولت الى داعية من دعاة استقلال تركستان الشرقية التي ضمتها الصين اليها في القرن الماضي. لا علاقة لأهلها المسلمين بالصين مطلقا. تذكرت حكايتها على إثر ما قام به عشرة من اعضاء حركة تركستان الشرقية الاسلامية بالهجوم قبل بضعة ايام على مجموعة من الصينيين وقتل نحو ثلاثين منهم.

دخلت قبائل الايغور الدين الاسلامي في القرن العاشر الميلادي وتحولت الى امبراطورية ضاربة الارجاء وجنكيز خان كان احد سلاطينها بيد ان المنازعات المستمرة بينهم اضعف كيانهم فتمكنت الصين من ابتلاع منطقتهم عام 1909. بيد ان ابنائها المعروفين بشجاعتهم وفروسيتهم قاموا بثورات عديدة حتى تمكنوا من الحصول على استقلالهم وإقامة دولتهم عام 1933 وتم الاعتراف بها عالميا. بيد ان ماوتسي تونغ ضمها الى الصين الشعبية ثانية في سنة 1949. ولكنهم عادوا في السنوات الاخيرة للمطالبة بالاستقلال والانسلاخ من الصين. وظهرت بينهم منظمات جهادية، كما رحل بعض اعضائها الى افغانستان للمشاركة في عمليات طالبان.

و هنا ايضا نجد العوامل الاقتصادية تلعب دورها في مصير هذه المنطقة المسلمة. فقد عرفت ولاية اكسنجيانغ (الاسم الرسمي لها) مؤخرا بمصادرها المعدنية الغنية، بما في ذلك الذهب والنفط والغاز وهو ما يجعل الصين تتمسك بالسيطرة عليها. كما تعتبر من اهم المناطق السياحية. ويتفوق سكانها ثقافيا وتعليميا على بقية مناطق الصين. والحروف العربية مازالت شائعة بينهم.

ما سمعته من غناء هذه المطربة التركستانية وموسيقاها وهيئتها وثيابها القومية وما اطلعت عليه

فيما بعد من تراث هذه المنطقة وتاريخها يوضح لي انها منطقة تختلف كليا عن بقية الصين الشعبية وبما يؤهلها لنيل استقلالها وانضمامها لأسرة الامة الاسلامية الواسعة. وسيكون من صالح الصين في رأيي ان تتخلص منها كجسم غريب عنها وتذعن لمطالب شعبها المشروعة، دفعا لمواجهة جهاد مرير بعيد المدى.

مشكلة الاكثرية والاقلية

تنص سائر الدساتير والانظمة الديمقاطية على ان الاكثرية لها الحكم والاقليات لها حقوقها. بيد ان حقوق واماني الطرفين تتناقض احيانا بحيث تؤدي الى توتر وانفجار. وهو ما شهده ويشهده العراقيون مرارا.

استطاع الغربيون ان يحلوا هذه التناقضات عقلانيا وعلمانيا ولكنها تنفجر احيانا بشكل طريف في مواضع شتى. وكان من اطرفها ما سمعته قبل اشهر عن اجراس كنيسة لبلدة صغيرة غربي انجلترا.

كثيرا ما استمتعت في اسفاري السياحية برنين نواقيس الكنائس وأذان المساجد عندما تحمله الرياح لآذاني من بلدة او قرية نائية. فله اثره الذي سحر الكثير من الادباء والموسيقيين. هكذا كتب همنغوي روايته الخالدة "لمن تدق الاجراس؟" وسبقه فكتور هيغو برواية "احدب نوتردام". ردد كثير من شعرائنا هذا الأثر فقالوا: لما علمت بأن القوم قد رحلوا وراهب الدير بالناقوس منشغل... الخ. وفي قصيدة اخرى، تغزل شاعر بإمرأة مسيحية فقال: "رأيتها تضرب الناقوس قلت لها، من علم الخود ضربا بالنواقيس..." وقد غنى ناظم الغزالي كلتا القصيدتين.

لرنين اجراس الكنائس انغامه الموسيقية التي لا يحسن اداءها غير العارفين بها ويسمونهم في انجلترا "دقاقي الاجراس" bell ringers. لكل كنيسة دقاقوها ولكنهم في بريطانيا اخذوا بالانقراض بنتيجة انحسار الدين. وبعد ان مات آخرهم وقع كاهن هذه الكنيسة في مشكلة. من يدق له الاجراس؟ فعل ما نفعله جميعا، نلتجيء للتكنولوجيا بتركيب اجهزة تقوم بدق الاجراس وتغنيه عن الانسان. اقتضى الأمر تكاليف كبيرة، عمد الى جمعها من رعيته المتعبدين ومن الحفلات الخيرية التي نظمها لجمع الفلوس. تم كل شيء ونصبت الاجهزة وعادت الكنيسة تنطق بأجراسها، تدعو المؤمنين للعبادة والاعراس للزواج والموتى لتشييعهم، ونحو ذلك.

بيد ان عددا من سكان البلدة تضايقوا من ذلك. فبعد فترة من سكوت الاجراس وجدوا ان سكوتها اطيب واسلم لهم. فما من شيء يحلو للمواطن الانجليزي اكثر من سكون عصر يوم الاحد. قدموا اخيرا دعوى للمحكمة لاستصدار امر يأمر الكاهن بعدم استعمال الاجراس. قالوا انها تزعجهم وتوقضهم من النوم وتكدر عليهم سكون يوم الأحد. دافع القس عن رسالة كنيسته واجراسه التي كلفته مبلغا طائلا. فرد عليه المشتكون بأنهم والاكثرية الساحقة من سكان المنطقة لا يؤمنون برسالته هذه، وبالتالي لا يعبؤن بهذه الاجراس ورنينها الذي يزعجهم. ولا يشكل المؤمنون المتعبدون في الكنيسة

غير اقلية ضئيلة من مجموع السكان، وبالتالي لا يحق لهم ازعاج الاكثرية. قالوا صوت الاجراس والنواقيس من مكبرات الصوت المنصوبة على برج الكنيسة يلوث البيئة الصوتية للمنطقة.

و سواء أكان حضرة القاضي مؤمنا او غير مؤمن فقد وجد نفسه مقيدا بالقوانين التي تضمن حقوق الاكثرية فأصدر قراره بمنع ذلك الكاهن المسكين من استعمال تكنولوجيته في دق اجراس الكنيسة فسكتت الى يومنا هذا احتراما لرأي الاكثرية.

اعداء المدنية واصدقاء الشيطان

ما تقوم به داعش ونحوها من العصابات يذكرني بما سمعته من والدي عن هجمات القبائل البدوية في العراق على المدن في العهد العثماني. يحتلونها لبضعة ايام، ينهبون ما يستطيعون نهبه وينشرون الخراب فيها ثم يعودون من حيث جاؤا. غير انهم كانوا صادقين في عملهم فلم يدعوا بأنهم رسل الاسلام او يسعون للخلافة او إقامة دولة. كانوا مجرد سلابين نهابين، شأنهم شأن امثالهم من البدائيين في شتى ربوع العالم المتخلفة. لم يقوموا بما قامت به داعش من اعمال تخريبية في هدم المساجد والكنائس والاضرحة التاريخية. ولكنني لاحظت ان داعش لم يدمروا الاضرحة الموسوية، كضريح النبي يونس ودانيال. لا ادري إن كانت اسرائيل قد حذرتهم او انهم عرفوا حدودهم وخافوا على مصيرهم. ومن يدري، ربما احترموا اجرتهم. ولكن احدا لم يدفع لهم عن الرموز الثقافية فهدموها وكان منها نصب الموسيقي الكبير، الشيخ عثمان الموصلي، الاب الشرعي للموسيقى المعاصرة الذي تتلمذ عليه السيد درويش والف الاغنية الشهيرة "زوروني بالسنة مرة".

سمعنا وقرأنا ايضا شيئا عن هذه الفتاوى الاباحية العجيبة التي يندى منها الجبين، مما نسبت اليهم ولم يكذبوها. ارجو ان تكون ملفقة وغير صحيحة.

ما تقوم به داعش والنصرة وسواهما هو في الواقع جزء من عملية العركة على الكعكة. فهؤلاء المشايخ ليسوا موظفين في الدولة ليفعلوا ما يفعله المسؤولون في العراق وسوريا بنهب موارد الدولة وعوائد النفط ويحصلوا على حصتهم. راحوا يغررون بالشباب بإسم الدين ويلعبون على عواطف السذج ويستغلونهم بحمل شتى الشعارات العاطفية كدولة الاسلام وإعادة الخلافة وهلمجرا، دون ان تكون لديهم اي فكرة عن ادارة مدينة صغيرة كالموصل، ناهيك عن إدارة دولة وامبراطورية.

هذه جريمة شنعاء. إستعمال الدين في تغرير الابرياء والمتخلفين بما يودي بحياتهم ويؤلم ذويهم ويسبب هلاك العديد من الناس وتدمير بيوتهم ومتاجرهم واحيائهم وعرقلة المسيرة التنموية والتعليمية والحضارية لبلدهم، ناهيك عن تشويه اسم الاسلام وإحراج المسلمين في كل مكان ولصق تهمة الارهاب بهم وبدينهم وشريعتهم.

و لكنني ارى صفحة مضيئة وراء هذه الصفحة المشينة السوداء. فهذا فصل سيمر وينقضي ويصبح حكاية تروى للاجيال القادمة. هذه الصفحة المضيئة التي سنراها امامنا تتمثل في توعية الجماهير ليدركوا اخطار هذه الخزعبلات. وفي السعي الحثيث لاستئصال هذه الجماعات لابد من

تظافر جميع قطاعات الشعب بكل طوائفه وقومياته بما يؤدي الى ازالة حزازات الطائفية والعنصرية وإدراك اهمية الوحدة والاخوة والوطنية.

وقد بدأت بوادر ذلك في العراق في تلاحم الشيعة والسنة للوقوف جبهة واحدة في وجه هذه العصبة الضالة والمجرمة. ولا بد ان تؤدي هذه التجربة المشينة التي جرت بإسم الاسلام الى إعادة النظر في هذه الجهالات التي ادت اليها لتوعية العقول والظمائر بضوء عقلاني علماني يتفاعل مع معطيات عصرنا هذا والمرحلة التنموية والبنائية الملقاة على عاتقنا.

السلابة النهابة

ذكرت سابقا ان ما قامت به داعش في الموصل وفي كل مكان هو ما كان آباؤهم واجدادهم يقومون به في تلك المنطقة، منطقة الجزيرة، من العيش على سلب ونهب الآخرين. خلصهم الانجليز من هذه المهة في ايام الانتداب بدفع علاوات لمشايخهم. ولكن لا يوجد اليوم من يدفع لهم. كل واحد من المسؤولين في هذه الايام مشغول بالنهب لنفسه. فعادوا الى سابق مهنتهم. حالما دخلوا المدينة نهبوا بنوكها وخزينة الحكومة. والآن هذه الخزائن فارغة ولم يعد هناك ما ينهبونه. ورغم ان التفكير ليس من شأنهم وغير معروف بينهم فإنهم فكروا بالفعل هنا. من يستطيعون سلبه ونهبه؟ لم يعد هنا اي يهود في المدينة. ولكن يوجد نصارى. حسنا. ولم لا؟ زي بعض!

اصدروا فتوى. على كل نصراني ان يدفع جزية او يعلن الاسلام او يواجه حد السيف. ولكنهم عدلوا هذه الفتوى فيما بعد فأضافوا: او يخرج من المدينة. اكتشفوا انهم لا توجد عندهم سيوف كافية للذبح. ففتحوا الابواب لهم ليخرجوا ويرحلوا الى كوردستان. الملاذ الآمن الوحيد الآن في العراق. وكان هو المطلوب بالضبط، أي ان يتركوا بيوتهم ومتاجرهم ومحلات عملهم لينهبوها، او يصطادونهم في الطريق فيسلبونهم. سلابة نهابة.

مدينة الموصل هي فاتيكان نصارى العراق. يمتد تاريخهم فيها الى صدر المسيحية قبل نحو الفي سنة. ومنها خرج كل ؤلئك المفكرين والعلماء المسيحيين الذين ساهموا في بناء حضارة وادي الرافدين عبر كل العصور. وفي القرن الثامن عشر وقفوا وقفة بطولية جنبا ال جانب مع اخوانهم المسلمين واليهود في الدفاع عن المدينة ضد غزو الفرس.

تحدث بطريريك الكلدان عن هذه الكارثة فحذر "من نتائج وخيمة على التعايش بين الاكثرية والاقليات، لا بل بين المسلمين انفسهم." وهذا هو الخطر. لم يعد احد يأمن على نفسه. فبعد نهب خزينة الحكومة وسلب النصارى سيأتي دور المسلمين بطوائفهم المختلفة. وسيجدون شتى الذرائع للتعرض لها، واحدة بعد اخرى. هذا في الواقع ما جرى بين المسلمين فعلا في ابو الخصيب، البصرة، كما سمعنا.

تأتي المرأة في المقدمة. فبعد الفتوى التي سبق وامروا بها كل الاناث بملازمة بيوتهن، اسرعت طالبات جامعة الموصل، وكانت بينهن واحدة من اقاربي، للهرب الى كوردستان، ملاذ كل احرار العراق الآن وليس ملجأ للارهابيين، كما قيل. أنها المنطقة الوحيدة الآن في الشرق الاوسط التي

خلت من الارهابيين والعمليات الارهابية ويعيش فيها الجميع آمنين على انفسهم.

جامعة الموصل مغلقة الآن. وهو غرض السلابين النهابين. فما من شيء يمقتونه ويحاربونه كالثقافة والعلم والتعلم. الجهالة والامية هي البحر الذي يستطيعون السبح والغوص فيه ويروجون اساطيرهم وخرافاتهم وتلفيقاتهم على الدين والانبياء والاولياء، وعلى ابناء الطوائف الاخرى وكل من اغلق ابوابه في وجوههم فتعذر عليهم ذبحه وسلبه واغتصاب حلاله واهله. اعجب ما في امرهم ان حكومة العراق وشعبه واهل الموصل وكل الاسرة الدولية والقوى الخارجية يتركونهم يسرحون ويمرحون في شوارع المدينة كل هذه الايام. وعلى عينك يا تاجر!

الحاجة لكتيبة أممية

تعتمد "داعش" و"النصرة" و"القاعدة" وطالبان وما سواها من المنظمات الإسلاموية الإرهابية على متطوعين من الخارج، من أوروبا إلى أستراليا، ودعم مالي أيضا. ذكرني ذلك بما قاله تولستوي: إذا كان بإمكان الأشرار أن يتعاونوا على الشر فلماذا لا يتعاون الأخيار على فعل الخير؟

عندما اندلعت الحرب الأهلية الإسبانية في 1936 بين الفاشيين بقيادة فرانكو الذي جاء بمتطوعين من أفريقيا أيضا لإسقاط الحكومة الشرعية الديمقراطية الاشتراكية، خف متطوعون ديمقراطيون ويساريون من سائر أنحاء العالم الغربي لنجدة الحكومة الشرعية ومحاربة فرانكو. شكلوا فيما بينهم ما عرف بالكتيبة الأممية International Brigade. ضمت في صفوفها شتى المفكرين والأدباء والفنانين؛ مثل الروائي الأميركي إرنست همنغواي، والمؤرخ الإنجليزي الشهير توينبي، والروائي جورج أورويل. تدربوا على حمل السلاح وحاربوا الفاشيين لما يقرب من سنتين. فشلوا في جهادهم، ولكنهم تركوا وراءهم شتى الأعمال الخالدة التي صورت تلك الحرب مثل رواية "لمن تدق الأجراس؟" لهمنغواي ولوحة بيكاسو الشهيرة "غارنيكا"، والكثير من الأعمال الموسيقية والغنائية التي ما زلت أستمع وأطرب لها. وهناك الآن مكتبة في لندن تضم أعمالهم ووثائقهم وصورهم.

ما تقوم به هذه المنظمات الإسلاموية الإرهابية لا يقل خطرا على التراث العالمي والديمقراطية وحقوق الإنسان، ولا سيما المرأة. قامت طالبان بهدم الآثار التاريخية الثمينة ومنع الفتيات من التعلم وفرض الحجاب والبرقع. وتقوم "داعش" بالشنائع نفسها زائدا نسف الأضرحة التاريخية والأنصبة الفنية والدعوة لختان المرأة التي تعتبر جريمة في الغرب يعاقب القانون عليها. في يدها الآن مدينة الحضر، أهم صرح تاريخي فني ما زال قائما في العراق. لن أعجب إذا ما سمعتها تضع المتفجرات تحتها وتنسفها بحجة أنها وثنية. وكل ذلك بالإضافة إلى جرائمهم الإرهابية، كتقتيل أبناء الطوائف الأخرى وتهجير المسيحيين وتدمير كنائسهم.

هذه تصرفات تهم "اليونيسكو" ولجنة حقوق الإنسان وتمس الحضارة العالمية ومصير الديمقراطية ومكانة المرأة وسيادة القانون. ومن ثم، فهي موضوع دولي يهم الجميع. وأعود لكلمة تولستوي: إذا كان هناك أشرار يتطوعون لفعل الشر فلمَ لا يكون هناك أخيار في العالم يتطوعون لنصرة الخير والسلام والحضارة؟ هناك حاجة لكتيبة مشابهة للكتيبة الأممية التي تطوعت لإسبانيا؛ كتيبة من سائر الأحرار الحريصين على التراث العالمي وحقوق الإنسان وحياة الأبرياء وكل ما أصبح مهددا بنشاط هذه

المنظمات الإرهابية؛ كتيبة تتسلح وتمول أمميا ويدربها ويقودها وينظمها ويوجه عملياتها قادة أحرار أكفاء من شتى الدول يتولون مهمة دحر هذه المنظمات الهمجية الطائشة وتنظيف أديم المنطقة من أقدامها وأوساخها. طالما عجزت الأنظمة القائمة ومنظمات الأمم المتحدة عن تولي المسؤولية، فليتولَ أحرار العالم هذا الواجب الإنساني فيسجلوا أروع صفحة في التاريخ الحديث للمنطقة ويعطوا بادرة رائعة للقيام بأدوار مشابهة في شتى هذه الجبهات المدمية والغارقة بالمآسي الإنسانية من نيجيريا إلى ليبيا واليمن فبلاد الشام والعراق وحتى أوكرانيا شمالا وتايلاند جنوبا.

أعداء المدنية

ما تقوم به داعش ونحوها من العصابات يذكرني بما سمعته من والدي عن هجمات القبائل البدوية في العراق على المدن في العهد العثماني. يحتلونها لبضعة أيام، ينهبون ما يستطيعون نهبه وينشرون الخراب فيها ثم يعودون من حيث جاءوا. غير أنهم كانوا صادقين في عملهم فلم يدعوا بأنهم رسل الإسلام أو يسعون للخلافة أو إقامة دولة.

كانوا مجرد سلابين نهابين، شأنهم شأن أمثالهم من البدائيين في شتى ربوع العالم المتخلفة. لم يقوموا بما قامت به داعش من أعمال تخريبية في هدم المساجد والكنائس والأضرحة التاريخية. ولكنني لاحظت أن داعش لم يدمر الأضرحة الموسوية، كضريح النبي يونس ودانيال. لا أدري إن كانت إسرائيل قد حذرتهم أو أنهم عرفوا حدودهم وخافوا على مصيرهم. ومن يدري، ربما احترموا أجرتهم. ولكن أحدا لم يدفع لهم عن الرموز الثقافية فهدموها وكان منها نصب الموسيقي الكبير، الشيخ عثمان الموصلي، الأب الشرعي للموسيقى المعاصرة الذي تتلمذ عليه السيد درويش وألف الأغنية الشهيرة "زوروني كل سنة مرة".

سمعنا وقرأنا أيضا شيئا عن هذه الفتاوى الإباحية العجيبة التي يندى منها الجبين، مما نسبت إليهم ولم يكذبوها. أرجو أن تكون ملفقة وغير صحيحة.

ما تقوم به داعش والنصرة وسواهما هو في الواقع جزء من عملية العركة على الكعكة. فهؤلاء المشايخ ليسوا موظفين في الدولة ليفعلوا ما يفعله المسؤولون في العراق وسوريا بنهب موارد الدولة وعوائد النفط ويحصلوا على حصتهم. راحوا يغررون بالشباب باسم الدين ويلعبون على عواطف السذج ويستغلونهم بحمل شتى الشعارات العاطفية كدولة الإسلام وإعادة الخلافة وهلم جرا، من دون أن تكون لديهم أي فكرة عن إدارة مدينة صغيرة كالموصل، ناهيك عن إدارة دولة وإمبراطورية.

هذه جريمة شنعاء. استعمال الدين في تغرير الأبرياء والمتخلفين بما يودي بحياتهم ويؤلم ذويهم ويسبب هلاك الكثير من الناس وتدمير بيوتهم ومتاجرهم وأحيائهم وعرقلة المسيرة التنموية والتعليمية والحضارية لبلدهم، ناهيك عن تشويه اسم الإسلام وإحراج المسلمين في كل مكان ولصق تهمة الإرهاب بهم وبدينهم وشريعتهم.

ولكنني أرى صفحة مضيئة وراء هذه الصفحة المشينة السوداء. فهذا فصل سيمر وينقضي ويصبح حكاية تروى للأجيال القادمة. هذه الصفحة المضيئة التي سنراها أمامنا تتمثل في توعية

الجماهير ليدركوا أخطار هذه الخزعبلات. وفي السعي الحثيث لاستئصال هذه الجماعات لا بد من تضافر جميع قطاعات الشعب بكل طوائفه وقومياته بما يؤدي إلى إزالة حزازات الطائفية والعنصرية وإدراك أهمية الوحدة والأخوة والوطنية.

وقد بدأت بوادر ذلك في العراق في تلاحم الشيعة والسنة للوقوف جبهة واحدة في وجه هذه العصبة الضالة والمجرمة. ولا بد أن تؤدي هذه التجربة الشائنة التي جرت باسم الإسلام إلى إعادة النظر في هذه الجهالات التي أدت إليها لتوعية العقول والضمائر بضوء عقلاني علماني يتفاعل مع معطيات عصرنا هذا والمرحلة التنموية والبنائية الملقاة على عاتقنا.

خطر "داعش" والخطر الأكبر

الظلم والفساد يؤديان للتمرد والإرهاب. العراق بلد غني. وعندما أحسب كل عناصر ثرواته وإمكاناته أرى أنه مؤهل ليكون أغنى وأسعد بلد في المنطقة. لكن هذا لم يحدث، وأصبح شعبه أشقى من فيها. وعندما يجد مواطنون أنهم محرومون من هذه الثروات وعليهم أن يدفعوا رشى للحصول على أخس عمل وأبسط مهنة، ويسمعون بمن سرقوا الملايين، فإنهم يتعرضون للوقوع في شتى الأحلام والأوهام بما يجرهم إلى تبني الأفكار المتطرفة والعنفية.

حصل ذلك بالأمس القريب عالميا وتسبب في الوقوع بالشيوعية، يوم آمن أصحابها بالثورة الحمراء لتقويض كل شيء وبناء جنة الله على الأرض. فشل المشروع وتبدد الحلم. لكننا تعلمنا من ذلك الفصل أن استعمال القوة والقمع لا يكفي لحل المشكلة والاستيقاظ من ذلك الحلم. لقد تبدد ح+لم الشيوعية عندما استيقظ أصحابها وجابهوا الواقع في عالم اليقظة، فأدركوا أن ما رأوه كان مجرد وهم وحلم أرجواني جميل.

يذكرني ذلك الفصل بما وقع فيه سائر هؤلاء الجهاديين، الذين راحوا يحلمون بإعادة الخلافة وفرض الدين الإسلامي والشريعة على العالم برمته. واكتفى فريق منهم أكثر واقعية بتطبيق ذلك في دولة صغيرة يقتطعونها من منطقة الهلال الخصيب يسمونها الدولة الإسلامية للعراق والشام. حاول الشيوعيون القفز إلى الأمام، لكن الجهاديين يسعون للقفز إلى الوراء. بالطبع ستتبدد كل هذه الأحلام. بيد أن المصيبة هي أنها ستكلفنا كثيرا في الأنفس والأموال، تماما كما حصل لشعوب الاتحاد السوفياتي.

وراء هذا الخطر خطر أكبر، وهو إغراق المنطقة بالتنازع والتقاتل الطائفي. يجري العمل الآن في قمع "داعش" وكل هذه التنظيمات الإرهابية. ولا شك أن الحكومات العربية والأجنبية ستنجح في الأخير في التخلص من أخطارها. لكن الخطر الذي سيصبح من الصعب التخلص منه هو غرس روح الطائفية في الشعب. يجب تفادي ذلك بفصل هذه المهمة التي هي من مهمات الحكومة والدولة عن نطاق المؤسسات الدينية والمرجعيات الطائفية.

قمع هذه التنظيمات الإرهابية مهمة وطنية تخص الجميع. يجب الحذر من وصف هذه التنظيمات بأنها تنظيمات جهادية ترفع راية هذه الطائفة أو تلك. على الجميع من سائر الطوائف والقوميات أن يدعموا جهود الحكومة وقواتها النظامية ومساعدات الدول الغربية في تحقيق هذا

الغرض، بعيدا عن زج الدين والطائفة في الموضوع. ويجب أن نتذكر أن ما ساعد تنظيم "داعش" في مسعاه في العراق هو استغلال الحيف الذي تشعر به بعض الطوائف والذي لم تبذل السلطة الجهود الكافية لرتقه ومعالجته بحيث يشعر الجميع بهوية واحدة وأن الحكومة القائمة هي حكومتهم الشرعية التي انتخبوها وتمثلهم جميعا وليس طائفة من الطوائف. ومثلما يقتضي على قادة الدولة أن يعملوا ويتكلموا من هذا المنطلق بعيدا عن أي منطلقات طائفية، على قادة الطوائف أيضا أن يتحاشوا تعبئة أتباعهم تحت ألوية طائفية، وكأن الموضوع موضوع حرب بين فئة وفئة، فهذا هو الخطر الذي يهدد العراق والعالم الإسلامي برمته.

حماقة ام عمالة؟

الفظائع الإرهابية الجنونية الجارية باسم الإسلام تحيرني، فهي حتما لا تخدم الإسلام بشيء ولا تراعي أرواح المسلمين. حيرني أمرها. خطر لي أن قادتها قوم مبتلون بعلل نفسية.. سايكوباثيا، بارانويا، ميغالومينيا، تدفعهم لتبنيها. ولكن عملياتهم الأخطبوطية الواسعة تتطلب تمويلا وتسليحا كبيرين. فمَن يمدهم بذلك؟ هل بين أثريائنا مَن هو أيضا مبتلى مثلهم بالسايكوباثيا أو البارانويا أو الميغالومينيا ليتجاوب معهم ويدعمهم؟ السلطات السعودية تقف بالمرصاد ضد مخططات الإخوان والإسلامويين وفصيل الإسلام السياسي.

من أغرب ما سمعته من تفاسير أن إسرائيل والإمبريالية الغربية تساند هذه الزمرة لتشويه صورة الإسلام والمسلمين وإشغال المسلمين بالتقاتل في ما بينهم.

هناك الآن حملة واسعة في الغرب لتحذير الغربيين من خطر سيطرة الإسلام على العالم الغربي، بل والعالم برمته. هناك من يقولون إن القرن الحادي والعشرين سيجد العالم برمته في قبضة الإسلام. يسوقون ذلك في إطار علمي يعتمد على الإحصاءات السكانية، فنسبة الولادة في كل الشعوب الغربية آخذة في الانخفاض إلى حد يهدد بزوالها. معدل نسبة التوالد في كل أوروبا يبلغ 1.38، وهو أقل بكثير من النسبة المطلوبة للبقاء (2.11)، علما أن الزيادات في السكان تعود في الواقع للمسلمين (من مقيمين ولاجئين). ثلث المواليد الجدد في جنوب فرنسا من عوائل مسلمة. والمعتقد أن 20 في المائة من الشعب الفرنسي سيكونون مسلمين بعد 12 سنة. وبعد 39 سنة ستصبح فرنسا جمهورية إسلامية. وستسبقها في ذلك ألمانيا بعد 36 سنة (بموجب حسابات دائرة الإحصاء الفيدرالية الألمانية). ويظهر أن بلجيكا وهولندا ستلحقان بهما، فنصف المواليد الآن فيهما مسلمون والمتوقع أن يشكلوا نصف السكان بعد 15 سنة فقط. وفي روسيا يشكل المسلمون خُمس السكان، والمتوقع قريبا أن يشكل المسلمون 40 في المائة من الجيش الروسي. وهناك مؤشرات مشابهة في كندا وأميركا.

دقّت هذه الأرقام نواقيس الخطر بما أدى لزيادة شعبية الأحزاب والمنظمات اليمينية التي تطالب بمنع وفود المسلمين والعمل على ترحيلهم والتضييق على وجودهم ومعيشتهم وعدم تجنيسهم. وبالفعل صدرت تشريعات نحو ذلك. يعتمدون في حملتهم ليس فقط على الإحصاءات الرقمية بل كذلك على الوقائع السلوكية للمسلمين. يصورون المسلمين كإرهابيين لا يحترمون الحياة ولا القانون ولا المدنية ولا المرأة ولا حقوق الإنسان ولا أتباع الديانات الأخرى. إنهم قوم غير صالحين للاندماج بالحضارة

الغربية.

ومن ينفعهم في ذلك ويمدهم بالأدلة القاطعة أحسن من هؤلاء الإرهابيين والإسلامويين الذين تجعل أخبارهم وأفعالهم فرائص الغربيين ترتجف وتتشنج؟ وهذا ما يعود بي إلى ما بدأت به من سؤال وتساؤل: هل ما تقوم به هذه الفئة الضالة ناتج عن حماقة عجيبة تجعلهم يتبرعون بالأدلة لأعداء الإسلام في الغرب، أم أنها ليست تبرعا وحماقة بل عمالة في خدمة يقومون بها لقاء ثمن يُدفع من أطراف تسعى لحصر المد الإسلامي؟

ضرورة سحق داعش وبأسرع وقت

نسمع شتى التصريحات عن القضاء على داعش في بحر ستة اشهر او بعد عام من الزمن. هذا غير كاف مطلقا. فداعش وباء ومن الخطر ترك اي وباء يستحكم في التربة وينشر مخالبه في المناطق المجاورة وعالميا. الوقاية خير من العلاج. وقد ظهرت بوادر هذا الخطر في التصريحات التي صدرت من منظمات اسلاموية ارهابية مشابهة كبوكو حرام في نايجيريا والقاعدة تؤيد داعش او تتجاوب معها. واصبح مسرح الارهاب في سوريا مدرسة تخريج الارهابيين من شتى الدول. حكمت المحاكم البريطانية قبل ايام بالسجن لمدة 13 عاما على شابين عادا من سوريا وفي امتعتهما مواد وادوات للقيام بأعمال تفجيرية في بريطانيا. واعترفا بذلك. إننا امام خطر عولمة الارهاب الاسلاموي. حلت الآن داعش محل مخيمات الفلسطينيين في تدريب الارهابيين الاجانب في ايام الستينات والسبعينات. اخذت الآن تستقبل اسلامويين واسلامويات من بريطانيا واوربا غربا ومن الجاجان وازبكستان شرقا، وبالمئات.

كل يوم يمر يزيد من نفوذ وافكار واساليب داعش في نشر هذه النسخة المشوهة والفضة من الشريعة بين المنظمات الاسلاموية في عموم العالم الاسلامي. وراح القوم يهتدون بها ويتباركون بعلمها الاسود، علم الخلافة الاسلامية التي تدعي هذه المنظمات بها وتسعى لأقامتها لا في العالم الاسلامي فقط، بل والعالم برمته حول الكرة الارضية، كفصل نهائي خاتم للحروب الصليبية. سيقولون اذا استطاعت داعش ان تقتطع هذا الجزء الواسع من العراق وسوريا بهذه السهولة وتسيطر على حقول نفط مهمة من كلتا الدولتين وتبيع انتاجها للخارج، وتصمد بوجه الجيوش المحلية وغارات الحلفاء، فلم لا نقوم نحن بمثل ذلك؟ ونتوسع فنسيطر على اوربا وامريكا وكل العالم من مونتكارلو الى هوليود؟

لم ينتبه العالم بعد لاخطار هذه التطورات المخيفة ومستقبلها الاسود. وقد وقعت قيادة العالم مع الاسف بيد هذا الرئيس الضعيف والمتردد، باراك اوباما، الذي حمل تردده وزير دفاعه الى الاستقالة قرفا من تردده وفوبيته. لم نكن نواجه هذا الوضع العصيب لو انه استجاب فورا لنصيحة وزيره وبادر للتدخل وإسقاط نظام الاسد حالما انتفض الشعب السوري عليه وتطلع الى دعم مشابه لما اعطي للشعب الليبي. لقد فاتت الفرصة الآن. وفات حتى وقت الندم.

كنت قد كتبت مؤخرا ودعوت لتشكيل فرقة عالمية من المتطوعين المؤمنين بالديمقراطية وحقوق الانسان وسلامة الاقليات للمساهمة بشن حرب عولمية تزيح داعش من الساحة التي احتلتها. خطورة

الموضوع تقتضي تدخلا عالميا وتجييش عساكر

الحب من حوارات الاديان

كواحد تزوج مرتين بأمرأتين من غير ديني ومن غير قوميتي، حملني ذلك الى الاعتقاد بأن تبادل الحب والزواج خير دليل على رحابة الصدر ولبرالية الانسان وتجاهله للحززات الطائفية والقومية والعنصرية. كلنا من آدم وآدام من تراب. الايمان بوحدة العائلة الانسانية خير سبيل للتعايش السلمي. وتاريخنا العربي والاسلامي حافل بالامثلة على هذه الروحية وهذا المنطلق. يكفينا ان نبينا محمد ابن عبد الله قد تزوج بمسيحية ويهودية. تستعرض المقالات الآتية بعض الامثلة مما سبق وكتبته ونشرته.

الحب رسالة التآلف

في المؤتمر الذي عقدته هيئة الدفاع عن اتباع الطوائف والاديان العراقية الذي عقد في السليمانية مؤخرا، استدعينا ذكرياتنا عن ايام الخير حين لم يلتفت الناس لاي فوارق بين الطوائف. تجلى ذلك بصورة خاصة في دنيا العشق والغرام. فالقلوب لا تعترف بالحواجز التي وضعها المفرقون وتتجاوز حتى عقولنا وايديولوجيتنا ومصالحنا. تجلى ذلك في شيوع الزواج المختلط والتحول من دين الى دين. طافت بي الذكريات واقتادتني الى ايام معرفتي بالشماس يوسف الذي كان اماما في احد مساجد الموصل ثم تنصر وانتقل لبغداد. وبالنظر لاتقانه فنون المقام والتلاوات كإمام فقد استخدمته الكنيسة شماسا ومنشدا في الكنيسة المعروفة في بغداد بأسم ام اللقالق، لكثرة ما يحط عليها من هذه الطيور العجيبة. وهو ما يتطلب التفكير. لماذا تذهب اللقالق وتعشعش على قبب الكنائس ولا تعشعش على منائر الجوامع؟

بقي ابونا يوسف اعزبا لمدة طويلة. قال اذا تزوجت بنصرانية فستعيرني بأصلي المسلم. واذا تزوجت بمسلمة فستعيرني بكوني قد تنصرت. ولكنه عثر في الاخير على امرأة مثله، كانت مسلمة وتنصرت فتزوجها. لا تستطيع ان تعيره ولا هو ان يعيرها. توفت بعد قليل وتزوج بعدها بأمرأة ثانية من ذات الفصيلة. اصبح بذلك حجة في الزواج المختلط وقبلة لمن يقعون في الحب المختلط. ففي تلك الايام كان تغيير الدين ظاهرة مألوفة عندنا.

زاره يوما شاب مسلم يستشيره في التحول الى الدين المسيحي. سأله عما يدفعه الى ذلك. اجابه بأنه وجد المسيجية دينا يبشر بالسلام والمحبة...الى آخره. قال له ابونا يوسف، ولكن يا ولدي دينك الاسلام ايضا يبشر بذلك. راح يتلو عليه كل الآيات والاحاديث النبوية التي تحث على السلم والمحبة والاخوة. قل الحقيقة يا ولدي، لماذا تريد ان تتنصر؟ كشف له الشاب حقيقة الأمر. انه وقع في حب جارته ماري روز ولكنها تصر عليه ان يدخل دينها اذا اراد الزواج بها. فقال له ابونا يوسف: "اسمع ابني. انا تزوجت مرتين واقول لك الحقيقة: ماكو بالدنيا مرة تسوى تغير دينك على شانها!"

تعرض لمثل هذه المشاكل خالد البجري بعد تعيينه واليا على الكوفة. اخذوا يعيرونه بأن امه كانت نصرانية من الروم. تأدبت بآداب العرب واتقنت لغتهم واخذت تنظم الشعر (وهو مقياس الحضارة عند العرب) وقع في هواها احد الشعراء فقال فيها:

يقولون نصرانية ام خالد

فقلت دعوها، كل نفس ودينها

فأن تك نصرانية ام خالد

فقد صورت في صورة لا تشينها

احبك اذ قالوابعينيك زرقة

كذاك عتاق الطير زرق عيونها

ترددت مصاعب هذا التناقض في الكثير من الاغاني الشعبية، وتأتي هذه الاغنية الموصلية في طليعتها:

كم ياردلي، كم ياردلي، سمرة قتلتيني

ادعي من رب السما ان لا تخليني

ابوك اسمر حلو ما حيا على ديني

انت على دينك وانا على ديني

انت صومي خمسينك واصوم انا ثلاثيني

الادب العربي مليء بالحكايات والاشعار التي تعبر عن حب مواطن لأمرأة من غير دينه. ومن منا لا يتذكر اغنية ناظم الغزالي، "سمراء من قوم عيسى". هذا تراث علينا ان نتذكره ونروجه. وكان من افكار المؤتمر التي تبنتها السيدة هيروخان، تأليف عمل موسيقي يضم مقطوعات غنائية من سائر الطوائف.

الحسان من قوم عيسى

من نتائج التعددية الدينية والطائفية في العراق وما تضمنته من روح التسامح والتعايش بين الاديان، شيوع الاختلاط بين ابناء وبنات الطوائف، ولاسيما بين المسلمين واهل الكتاب. وهذا بدوره كثيرا ما ادى الى وقوع مسلم في هوى مسيحية او يهودية، واحيانا بالعكس. نجد في الشعر العربي، والادب العربي بصورة عامة، امثلة من هذه النزعة الرومانسية. كثيرا ما غزت الفتيات المسيحيات قلوب الشباب المسلم بما تميزن به من صفات هام العرب بها، بياض البشرة والعيون الزرق او الرصاصية او العسلية والشعر الاشقر او الكستنائي. لا بد ان يعود ذلك الى الأثر الذي خلفه الروم والصليبيون في المنطقة. هكذا اعتاد البدو على تسمية ووصف الرجل الذي يتمتع بهذه الصفات بأنه "صلبي" او "صليبي." ولربما ترك الانجليز والفرنسيون ايضا بصمة اصابعهم في التركيبة السكانية. يرى الكثير من المصريين ان نساء المنصورة يتمتعن بحسن خاص لأن نابليون اقام معسكرات الجيش الفرنسي على مقربة منها. وفي مقالتي السابقة استشهدت بما قاله الشاعر الثرواني في افتتانه في الكوفة بحسن مواكب المسيحيات المتقينات في عيد الشعانين، يحملن الخوص والزيتون في طريقهن للدير.

ولا شك ان عدم تحجب المرأة الكتابية واستعدادها للاختلاط بالرجال كان سببا آخر في وقوع الشباب المسلم في هوى المسيحيات. وهكذا انتاب الحنين اليهن مشاعر الشاعر الكوفي، علي بن محمد الحماني فكتب يقول وهو يتذكر الاماكن المسيحية التي اختفت:

واها لأيامي وايام النقيات المراشف
و الفارسات البان قضبانا على كثب الروادف
و الجاعلات البدر ما بين الحواجب والسوالف
ايام يظهرن الخلاف بغير نيات المخالف
وقف النعيم على الصبا وزللت عن تلك المواقف

لقد وقف هذا الشاعر موقف شعراء الجاهلية في وقوفهم على الاطلال، اطلال الأديرة والكنائس التي كانت منتشرة في المنطقة على ضفاف الفرات. اعتاد الشعراء والادباء المسلمون على التردد على هذه الأديرة، حيث كانوا يجدون فيها ما يطيب لأنفسهم وهو النبيذ والمجلس الحر. وبالطبع، كان ابو

نوآس في طليعة الزائرين كما نستشف من شعره:

لا تخفلن بقول الزاجر اللاحي

واشرب على الورد من مشمولة الراح

صهباء صافية تجديك نكهتها

تنفس المسك ملطوخا بتفاح

حتى اذ سلسلت في قعر باطية

اغناك لؤلؤها عن ضوء مصباح

مازلت اسقي حبيبي ثم الثمه

و الليل ملتحف في ثوب امساح

حتى تغنى وقد مالت سوالفه

"يا دير حنة من ذات الأكيراح"

دور الاديرة في الادب العربي

اشرت سابقا الى كتاب محمد سعيد الطريحي عن الاديرة المسيحية التي كانت منتشرة في العراق. كان من الطبيعي لها ان تثير خيال الشعراء بمجرد وجودها كعنصر حضاري وسط هذه الصحارى والفيافي المنتشرة في المنطقة، يستظل بظلها المسافر، ويبلل ريقه بمائها، وربما خمرها، ويطمئن لحديث رهبانها. ولابد ان اثارت مشاعر عابر القفراء الصامتة الموحشة بصوت أجراسها الموسيقية، الناقوس يضرب بعيدا وراء الافق برنينه الحلو، ذكرى بالحياة وحياة مالك السماء والارض. حتى هنا في ومبلدن بلندن، كثيرا ما اهتز واطرب عندما استمع صباح يوم الأحد، والقوم نيام، لأجراس كنيسة سان ميري بعيدا من قرية ومبلدن.

تردد الكثير من هذه المشاعر في كلام شعرائنا. وكان منها ما تغنى به المطربون كمحمد القبانجي رحمه اله في ذلك المقام الشهير عن راهب الدير، بالناقوس منشغل:

وضعت عشري على رأسي وقلت له

يا راهب الدير هل مرت بك الابل

فأن لي وبكى وحن لي وشكى

و قال لي يافتى ضاقت بك الحيل

أن البدور اللواتي جئت تطلبها

بالأمس كانوا هنا واليوم قد رحلوا

و من اللطيف ان يذكر الشاعر مدى تأثر ذلك الراهب لمحنة هذا العاشق المشرد فحن له وان وبكي. ولابد من ملاحظة هذا الايقاع الرائع في البيت الثاني وما يعكسه من السير الدؤب على ظهور الجمال في هذه الصحراء الضاربة.

و يتناول نغمة الناقوس مطرب عراقي آخر، ناظم الغزالي بأغنيته الشهيرة عن السمراء النصرانية، وليس البيضاء الشقراء كما علمنا الشعراء، وهي تضرب بالناقوس بهذه الابيات الحاشدة بأروع ما سمعنا من بديعيات الجناس والتورية:

سمراء من قوم عيسى من اباح لها

قتل امرء مسلم قاسى بها ولها

رأيتها تضرب الناقوس، قلت لها

من علم الخود ضربا بالنوى قيسي

اردت بيعتها اشكو القتيل لها

وقلت للنفس اي الضرب يؤلمها

ضرب النواقيس ام ضرب النوى قيسي

سمراء او بيضاء، انها على السن الشعراء:

يا ليتني كنت لها صليبا

ابصر حسنا واشم طيبا

النصارى لا يستضيفون القبانجي

في مطلع نجومية محمد القبانجي، وجد نفسه في ازمة عسيرة القت به في قفص الاتهام. وكلها من اجل حسناء من قوم عيسى تغنى بها في اغنيته الشهيرة "سودنوني هالنصارى". ويبدو انها تركت اثرها عليه. فالقبانجي كان من المطربين المهتمين بالشؤون العامة والقضايا الوطنية والقومية وربما غنى هذه الاغنية في اوائل تأسيس المملكة العراقية كأنشودة تتغنى بالمحبة بين الطوائف. ولكنها انقلبت عليه مع الأسف وكادت تزجه في السجن فعلمته الحذر.

يا نصارى اش صار بيكم

ما تضيفون اليجيكم

لأصعد العيسى نبيكم

و أسأله يسوي لي جارة!

ما ان غناها المطرب الكبير وسجلها وتوزعت اسطواناتها في العراق حتى هبت ضجة اجتاحت العاصمة العراقية. قالوا انها تجرح مشاعر اخواننا المسيحيين بالتغني بواحدة من نسائهم. قالوا هذه اغنية تثير النعرات الطائفية. فضلا عن ذلك، عثر المغرضون كالعادة على ما اعتبروه كفرا بالدين. قالوا، ما هذا؟ ان يصعد المغني الى السماء ويدخل الجنة ويكلم السيد المسيح عليه السلام ويوسطه في موضوع حبه. ايريد ان يصنع منه وسيطا في مثل هذا الموضوع؟

القوا القبض عليه وساقوه للمحاكمة. سأله القاضي، من انت يا كافر؟ ومن قال لك انك ستدخل الجنة؟ فأجابه ابو قاسم، انا مو كافر. انا مسلم واسمي محمد. وكمسلم لابد ان ادخل الجنة في الاخير. قدم محامسي المتهم دفاعه بأن النصارى لم يستاؤا من الاغنية قط، بل اعجبتهم. وكان من صنع الاسطوانة وقام بتوزيعها في العراق رجل مسيحي هو نقولا الخوري. وعزفت الاسطوانة باستمرار في مقهى جميل، الذي كان هو ايضا مسيحيا ومعظم زبائنه من النصارى ولم يعترض احد منهم على عزفها. وللمغني نفسه كثير من الاصدقاء النصارى بل ويسكن في حي سوق الغزل الذي يضم الكثير من العوائل المسيحية وتربطهم به روابط جيدة.

و قدم المحامي مضبطة وقعها الكثيرون من المسيحيين تؤيد المطرب وتستحسن ما غناه. بيد ان المدعي العام جاء بشاهد مسيحي، السيد سليم حسون، الذي شهد ضد القبانجي وقال انه وجد كلمات الاغنية تجرح شعوره. وللرد عليه، جاء محامي الدفاع بمسيحي آخر هو المحامي يوسف عمانوئيل

الذي عبر عن ارتياحه التام للأغنية. شفع ذلك شاهد مسلم، هو محمد صالح، كاتب عدل بغداد الذي شهد بأن الاغنية لا تنطوي على اي كفر وذكر المحكمة بما قاله القرآن الكريم بأن الشعراء يقولون ما لا يفعلون.

لحسن حظ المتهم ان القاضي المتزمت ضده قد نقل واستلم مكانه قاض آخر من محبي المقام ومن عشاق اغاني القبانجي، اعتقد انه كان شهاب الدين الكيلاني، فحكم في الأخيربتبرئة المتهم. وراح العراق من شماله لجنوبه يرددون انغامها وكلماتها، سودنوني هالنصارى.

الجواهري ونصارى بغداد

اشرت سابقا لما الهب قلوب الشباب المسلم من مرأى الفتيات المسيحيات سافرات بكل ما وهبهن الله به من جمال القيافة وحسن المحيا. عبر عن ذلك محمد مهدي الجواهري بعد زيارته لبغداد في العشرينات فراح يروي لأصحابه في النجف الاشراف من عجائب الحياة في بغداد، ومن ذلك مشهد بنات النصارى يمشين في الطريق سافرات بدون عبائة او فوطة، فانبهر بهن. تبعه في ذلك الحبوبي الذي رآهن وقد اتخذن من صوب الكرخ سكنا لهن، مما لم يشهده اهل الكرخ من قبل. قال:

حيي اقمار النصارى

تخذت في الكرخ دارا

و يظهر ان اثر طراز الحياة الجديدة التعددية قد عم وانتشر حتى بين اهل الريف والطبقات الشعبية. هكذا سمعنا بهذه العبوذية من شاعر شعبي:

و حق عيسى وموسى وحق يحي

لو اقبل علينا الترف يحي

عيسى بمعجزاته الميت يحيا

ضبينا بمعجزاته تميت هيّ.

و المقطوعة تخريج شعبي لما سبق وقاله الشاعر الكلاسيكي:

وضبي من بني النصارى

بسهام لحظه رميت،

قارب بالمعجزات عيسى

فذاك يحيي وذا يميت

رغم انبهار الجواهري بنصرانيات بغداد، فأنه لم يقل الكثير فيهن ولا اراه قد وقع في حب واحدة من هن. ولكنه سجل اعجابه وهيامه بمسيحيات العالم الغربي خلال تشرده وغربته في عوالمهن. ترك لنا القصديدين الخالدتين، انيتا الفرنسية وبائعة السمك التشيكية في براغ:

فلاحت لنا حلوة المجتلى

تلفّت كالرشأ النافر

تشد الحزام على بانة

وتفترعن قمر زاهر

من الجيك حسبك من فتنة

تضيق بها رقية الساحر

فقلنا لها يا ابنة الاجملين

من كل باد ومن حاضر

ويا خير من لقن الملحدين

دليلا على قدرة القادر

بيد انني وجدت الجواهري يتوهج صبابة في حب "غيداء"، امرأة التقاها عام 1957 في دمشق وقال فيها قصيدة من احسن ما قاله في الحب. يصف الشموع تتوهج بوهج خدودها. اكان ذلك اشارة للقاء في كنيسة، وغيداء تشعل شمعة للجواهري على مذبح مريم العذراء يحيط بها الورد؟

غيداء اذ يتأطر القد

وأذ الشموع يشبها خد

واذا الشفاه يضمهن فم

حلو، اذ يتنفس الورد

يا تين يا توت

من اشهر القصائد الرومانسية التي جمعت حولها شلة من الاساطير والروايات قصيدة حافظ جميل عن ليلى تين، "يا تين، يا توت يا رمان يا عنب." ادعى بها عدد من الشعراء، ولاشك انهم اضافوا اليها ما شاؤا من ابيات تبرر لهم ادعائهم.

ذكروا انها قيلت بحق حسناء فلسطينية مسيحية التقاها في بيروت. وقع في هواها ولكنها لم تستجب له. ندمت على ما فعلت وقررت ان تعود ايه وتعتذر. فرحلت الى بغداد تبحث عنه. التقته، ولكن، آه، بعد فوات الاوان وانصرام الشباب. فقال فيها قصيدته.

تلك واحدة من الاساطير "التينية". ولكن الرأي الغالب والاقرب للحقيقة أنها كانت تلميذة لبنانية مسيحية تدرس مع حافظ جميل في الجامعة الامريكية في بيروت. يقولون انه رآها في مطعم الجامعة فنادى بأسمها "يا تين". فالتفتت وابتسمت عن ثغر جميل واسنان عاجية بيضاء فأضاف "يا توت." اقبلت عليه بصدرها الناهد فأضاف قائلا: "يا رمان!" عادت فضحكت بشفتين تقرمزتا بقلم الشفايف فقال: "يا عنب!"

تحدثا قليلا وانصرفا. ولكن اللقاء ظل يثير مشاعر الشاعر الخمار ويوقظ شيطان الوحي في نفسه فلم تمر الليلة الا وتمخضت عن تلك القصيدة التي تلاقفتها السن الطلبة في الجامعة ومن ثم اقلام الكتاب والشعراء والنقاد. ومنهم خادمكم المطيع:

يا تين يا توت يا رمان يا عنب!
يا خير من اجنت الاغصان والكتب
يا مشتهى كل نفس مسها السغب
يا برء كل فوآد شفه الوصب
يا تين يا توت يا رمان يا عنب!
.....
يا تين، يا ليت سرح التين يجمعنا
يا توت، يا ليت ظل التوت مضجعنا
و انت ليتك يا رمان ترضعنا
و الكرم، يا ليت بنت الكرم تصرعنا

يا تين يا توت يا رمان يا عنب!

حب اليهوديات

لم يرد الشيء الكثير من الادبيات العربية في مواضيع حب النساء اليهوديات كما ورد بالنسبة للوقوع في حب النساء المسيحيات، مما سبق وان اتيت على الكثير منه. وربما يعود ذلك الى حذر اليهوديات من الوقوع في حب رجل من غير دينها او الزواج به. هناك شيء من العنصرية في الموضوع. فالطائفة الموسوية تنظر نظرة سيئة جدا لمن تتزوج بغير يهودي وكثيرا ما كانوا ينبذونها ويتبرأون منها. لابد من صيانة الدم العبري من الاختلاط بالغير. ولهم في ذلك نصوص ومبررات فقهية عديدة. من ذلك ان الشريعة الموسوية تفترض ان ابن اليهودية يهودي. فكيف تستطيع الأم ان تربي ابنها على دينها وهي في بيت مسلم؟

كما ان المجتمع اليهودي منغلق على نفسه فلا يجد الشاب المسلم كثيرا من الفرص للتوغل فيه والتعرف بحسناواته.

فضلا عن ذلك فأن اليهوديات الشرقيات المزراحي ساميات. ومن ذلك انهن بصورة عامة يتصفن بنفس الصفات التي تتسم بها المرأة العربية المسلمة، البشرة السمراء، الشعر الاسود، العيون السوداء او الداكنة والتقاطيع السامية كالأنف المعكوف والقامة القصيرة. وليس في ذلك ما يثير مشاعر العربي المسلم الذي اعتاد على تفضيل السمات الاوربية، البشرة البيضاء والعين الزرقاء والشعر الأشقر والانف الدقيق والقامة الطويلة، مما يجده في كثير من المسيحيات.

و لكن هذه العوامل لم تنف كليا الهوى المتبادل بين الموسويات والاغيار من مسلمين وعرب. عرفنا الكثير من ذلك في ايام الخير من العهد الملكي. وقع الكثيرون من رجالات ذلك العهد، ومنهم قاضي بغداد برهان الدين الكيلاني، في حب المطربة سليمة مراد. وكان منهم طبعا نجم المقام العراقي ناظم الغزالي حيث تزوجا وقضيا اجمل سنوات حياتهما معا. وكان منهم ايضا زكي خيري، سكرتير الحزب الشيوعي في وقت ما، الذي احب وتزوج الرفيقة سعاد. وكان ممن وقعوا في حب مبرح مع سيدة يهودية ايضا محمود صبحي الدفتري. احب جان، او جانو كما كان يسميها. وشابت علاقتهما كثير من الاضطرابات والعكننات ادت بها يوما الى الزعل منه وهجرانه. فتعذب كثيرا من ذلك ولم يعرف كيف يراضيها ويصالحها. فكلف صديقه الشاعر عطا الخطيب، مفتي بغداد، بأن يكتب له شعرا يتوسل بها للرجوع اليه. وكان على علم بقصة هيامه بها، فأعطاه هذين البيتين الظريفين بما فيهما من جناس دقيق:

محمود صبحي الدفتري يا جانوا

زادت به من بعدك الأشجان

عجب الأنام بما رأوا من حاله

حتى اليهود تسائلوا "وي! اش جانوا!"

و من النوادر التي سطرها احمد القزويني في "كتاب النوادر" هذان البيتان الظريفان من الشاعر النجفي الشيخ صالح الكواز اللذان يلعبان بحذق بمعتقداتنا الدينية وبما ارتبط بحياة النبي موسى عليه السلام ورسالته ومعجزاته:

و رب ضبية من آل موسى

ارتنا باللحاظ عصا ابيها

وغرتها تفوق على الدراري

كأن يمينه البيضاء فيها

الى آخر القصيدة التي لم يكتب لها آخر ولم يحترم وحدتها واصالتها شاعر. وظلت القصيدة الوحيدة التي اشتهر بها حافظ ابراهيم. قصيدة شاعرعراقي من ملة محمد يقع في هوى امرأة من قوم عيسى.

الحب خارج الساحة

كان من الطبيعي لمن يقع في حب امرأة من غير ملته، وفي هذه الايام الكالحة من غير طائفته، ان يواجه المشاكل الاجتماعية والعائلية والدينية التي يجرها ذلك الحب. كان ممن عانى من هذه المشاكل صديقي الشماس يوسف احمد الذي بدأ حياته اماما في مسجد في الموصل ثم تنصر واصبح شماسا ومنشدا في الكنيسة المعروفة في بغداد بأسم ام اللقالق، لكثرة ما يحط عليها من هذه الطيور العجيبة. وهو ما يتطلب التفكير. لماذا تذهب اللقالق وتعشعش على قبب الكنائس ولا تعشعش على منائر الجوامع؟

بقي ابونا يوسف اعزبا لمدة طويلة. قال اذا تزوجت بنصرانية فستعيرني بأصلي المسلم. واذا تزوجت بمسلمة فستعيرني بكوني قد تنصرت. ولكنه عثر في الاخير على امرأة مثله، كانت مسلمة وتنصرت فتزوجها. لا تستطيع ان تعيره ولا هو ان يعيرها. توفت بعد قليل وتزوج بعدها بأمرأة ثانية من ذات الفصيلة. اصبح بذلك حجة في الزواج المختلط وقبلة لمن يقعون في الحب المختلط. ففي تلك الايام كان تغيير الدين ظاهرة مألوفة في العراق.

زاره يوما شاب مسلم يستشيره في التحول الى الدين المسيحي. سأله عما يدفعه الى ذلك. اجابه بأنه وجد المسيجية دينا يبشر بالسلام والمحبة...الى آخره. قال له ابونا يوسف، ولكن يا ولدي دينك الاسلام ايضا يبشر بذلك. راح يتلو عليه كل الآيات والاحاديث النبوية التي تحث على السلم والمحبة والاخوة. قل الحقيقة يا ولدي، لماذا تريد ان تتنصر؟ كشف له الشاب حقيقة الأمر. انه وقع في حب جارته افلين ولكنها تصر عليه ان يدخل دينها اذا اراد الزواج بها. فقال له ابونا يوسف: "اسمع ابني. انا تزوجت مرتين واقول لك: ماكو بالدنيا مرة تسوى تغير دينك على شانها!"

تعرض لمثل هذه المشاكل خالد بن عبد الله البجري القسري، بعد تعيينه واليا على الكوفة. اخذوا يعيرونه بأن امه كانت نصرانية من الروم. تأدبت بآداب العرب واتقنت لغتهم واخذت تنظم الشعر (وهو مقياس الحضارة عند العرب) وقع في هواها احد الشعراء فقال فيها:

يقولون نصرانية ام خالد

فقلت دعوها، كل نفس ودينها

فأن تك نصرانية ام خالد

فقد صورت في صورة لا تشينها

احبك اذ قالوابعينيك زرقة

كذاك عتاق الطير زرق عيونها

ترددت مصاعب هذا التناقض في الكثير من الامثال والاغاني الشعبية، وتأتي هذه الاغنية الموصلية في طليعة ذلك:

كم ياردلي، كم ياردلي، سمرة قتلتيني

ادعي من رب السما ان لا تخليني

ابوك اسمر حلو ما حيا على ديني

انت على دينك وانا على ديني

انت صومي خمسينك واصوم انا ثلاثيني

و كانت ايام خير وراحت.

الصدر والنهدان ثالوث الجواهري

اعود اليوم لموضوع تعلق بعض المسلمين بالكتابيات. للهيام بجمال المسيحيات تاريخ طويل في الأدب العربي. وربما يعود لغلبة الصفات الآرية عليهن، الشعر الاشقر او الكستنائي والعيون الرصاصية او النرجسية والبشرة البيضاء وطول القامة. وكل هذا من مخلفات الروم والصليبيين والاحتلال الاوربي. ومن المعتاد للبدو ان يطلقوا على المرأة التي تحمل هذه الصفات بأنها "صليبية."

برز محمد مهدي الجوهري بصورة خاصة من بين الشعراء المعاصرين في تولهه بالحسان المسيحيات. كتب عدة قصائد يتغنى فيها بجمال الشيكيات (بائعة السمك) والفرنسيات (انيتا)، بالاضافة الى المسيحيات العربيات. وقد اتحفني رواء الجواهري، مدير مركز الجواهري في براغ بعينة طريفة من ذلك. وهذه مساهمة مهمة لتصحيح الانطباع بأن الجواهري كان شاعرا سياسيا وكفى ونتجاهل مكانته كشاعر وجداني.

تتجلى الرموز المسيحية في كثير من اوصافه للحسان والغواني من ذلك قوله:

هدي المسيح على العيون طفا وطافا

و دم الصليب على الخدود يرتشف ارتشافا

و لهذا الميل الجواهري جذور عميقة وطويلة. فما ان زار لبنان عام 1934 وهو في مطلع شبابه حتى وقع بحب حسناء من اهل زحلة اوحت له بقصيدة طويلة:

ثقي "زحيلة" ان الحسن اجمعه

في الكون، عن حسنك المطبوع تقليد

انت الحياة وعمر في سواك مضى

فإنما هو تبذير وتبديـد

و كان الشاعر قد وضع، كما يقول الزميل رواء، قويسات على زحيلة ليلعب على ما قصده فيها من تورية ظريفة. ويمضي ابو فرات فيقول:

هذي "المسيحية" الحسناء تم على

شرع المسيح لها بالماء تعميد

كأنها وعيون الماء تغمرها

مستنزف الدم من عرقيه مفصود

اسلوب حسنك ممتاز فلا عنت

في الروح منه، ولا في السبك تعقيد

نهداك والصدر "ثالوث" اقدسه

لو كان يجمع تثليث وتوحيد

وقد اثار البيت الاخير حفيظة المشايخ في بلدة الشاعر، النجف الأشرف، فلعبوا على كلمة التثليث في سخريتهم منه، وكانت سخرية بذيئة تأبى هذه الصحيفة على نشرها رغم كل ما فيها من طرافة وظرف.

التيجاني في هوى حسن النصارى

و قد وردتني اشعار من السودان تصف هوى مسلميها بحسناوات مسحيياها. وكان منها ما عبر عنه بحرقة خاصة الشاعر السوداني التيجاني يوسف بشير في سورة عاطفية اوحت له بهذه الابيات الطريفة وهو يعاين كوكبة منهن يغادرن كنيسة الخرطوم:

آمنت بالحسن بردا وبالصبابة نارا
بالكنيسة عقدا منضدا من عذارى
و بالمسيح ومن طاف حوله واستجارا
ايمان من يعبد الحسن في النصارى

و يقول:

و لقد تعلم الكنائس كم انف مدل بها وخد مورد
و لقد تعلم الكنائس كم جفن منضى وكم جمال منضد

و يقول:

درج الحسن في مواكب عيسى
مدرج الحب في مساجد احمد
و نمت مريم الجمال وديعا
مشرقا كالصبح احور اغيد

يهودي في هوى مسلمة

اشرت في مقالتي السابقة الى ما يواجهه الشاب المسلم من صعوبات في الوقوع في هوى يهودية. اكثر من ذلك صعوبة ما يواجهه اليهودي في حب امرأة مسلمة. وكان ذلك مصيبة الموسيقار صالح الكويتي. وهو شخصية معروفة في عالم الطرب العراقي، بل وربما يعتبر واضع اسس الغناء العراقي الحديث. كان ممن لحّن لهن المطربة زكية جورج. من المعتاد في دنيا الطرب ان تحصل علاقة حب بين الملحن او المؤلف والمغنية. وهو ما حصل لصالح الكويتي في الثلاثينات. بيد ان المشكلة هي ان زكية جورج لم تكن نصرانية كما يوحي اسمها. كانت مسلمة من حلب قصدت بغداد لتكسب لقمة عيش. ادركت فورا ان اسمها فاطمة لن يسمح لها بأن تظهرعلى الشانو وترقص وتغني بإسم فاطمة الزهراء. فغيرته الى زكية جورج وتظاهرت بأنها مسيحية. التظاهر بغير هويتك شيء مألوف في العراق. انظروا لكل هؤلاء الذين تولوا المسؤولية الآن وفي جيوبهم باسبورتات بريطانية.

تطورت العلاقة العاطفية بينهما حتى حل شهر رمضان المبارك عندما اغلقت البلدية كل الملاهي والحانات في بغداد احتراما للشهر المجيد. لابأس بأن يفسق العراقيون 11 شهرا ويصوموا عن الفسق لشهر واحد. بيد ان ذلك لم يرق لزكية جورج في كسب رزقها. سمعت بأن البصرة التي تعتبر الآن مركزا للتعصب كانت متساهلة في هذا الموضوع عندئذ. بقيت ملاهيها وحاناتها تعج بالزبائن. فرحلت اليها زكية وودعت حبيبها. "شهر واحد وارجع لك".

لكن ذلك لم يحصل. لم ترجع اليه. وقعت هناك في حب شاب صيدلاني وآثرت البقاء معه على العودة لعشيقها اليهودي. استعرت نيران الغيرة والشوق والفراق في قلبه. عبثا حاول ان يقنعها بالعودة الى بغداد. فتدفقت مشاعره في سلسلة من الأغاني العاطفية التي اصبحت كنزا من كنوز الغناء العراقي، تسمعونها في اي حفلة طرب عراقية:

مليان كل قلبي حجي(حكي)

المن اقولن واشتجي

ما ينفع قليبي الندم

ما ينفع عيوني البجي.

ليزيد من وقع هذه الأغاني على زكية جورج، كلف غريمتها في المهنة، المطربة اليهودية الشهيرة سليمة مراد، ان تغنيها من اذاعة بغداد:

الهجر مو عادة غريبة

لا ولا منك عجيبة

عرفت من هذا فعلكم

كل من يسوقه حليبه

هذا مو انصاف منك

غيبتك عني تطول

الناس لو سألوني عنك

شأرد اجاوبهم شأقول؟

لم تعد زكية اليه وتزوج الموسيقار ابنة عمه كما يفعل كل الفاشلين منا في حبهم. التقيت بأبنه مؤخرا وسألته عن ذلك فقال انه مازال يحمل ذلك الجرح في قلبه.

خواطر وذكريات

الأجر على قدر المشقة

في ايام رمضان الشريف تمتد ساعات الصيام في بريطانيا من وقت السحور في حوالي الساعة الثانية فجرا حتى وقت الإفطار في حوالي الساعة التاسعة مساء. ففي شهر يونيو(حزيران) ويوليو (تموز) يستغرق النهار اطول وقت في السنة. ولا نستطيع غير ان نحيي الصائمين في هذه الايام على عزمهم وقوة ارادتهم، وبالطبع عمق ايمانهم وتمسكهم بالفرائض. اتذكر الكثير من هذه المعاناة في اشهر الصيف القاسية في العراق، ولاسيما في شهر آب(اغسطس). يقول عنه العراقيون، آب يحرق المسمار بالباب. وهو ما حمل احد شعرائهم للاعتذار عن الصوم بهذين البيتين:

إن كنت قدرت الصي-ام

فاعفنا من شهر آب

او لا، فإنا مفطرو

ن وصابرون على العذاب

وهي لعمري حماقة ما بعدها من حماقة، ان يحسب عذاب جهنم اهون من عذاب شهر آب في بغداد، حتى عندما ينقطع الكهرباء وتتوقف المراوح والمكيفات. ويظهر ان حر بغداد في اشهر الصيف وطول ساعات النهار كثيرا ما تسبب في مشاكل لأهلها في شهر الصوم. وكان مما اتذكره منها ان رأيت هذه اليافطة معلقة على واجهة احد المطاعم التي مررت بها وهي تقول: "احتراما لشعائر رمضان المبارك هذا المطعم مغلوق. يرجى الدخول من الباب الخلفية."

نشأ تراث كبير من الادب العربي عن طرائف مصاعب الصيام. قيل انهم سألوا احد الظرفاء، في اي يوم تفضل ان تموت؟ فقال إذا كان ولابد ففي اول يوم من رمضان. ونظر احدهم الى البدر في اواسط الشهر فقال: "اراك سمنت واهزلتني. وما اراه من ورائك غير السل!"

يروي كتاب الاغاني للآصفهاني فيقول ان الخليفة العباسي، المهدي، امر الشاعر ابا دلامة ان يحرص على صيام شهر رمضان. وحذره قائلا "إنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك. ووالله إن فعلت لأحدنك (اقاصصك) فأجابه ابو دلامة: "البلية في شهر اصلح منها في طول الدهر".

و دأب الخليفة المهدي ان يبعث اليه بحرس كل ليلة ليتأكد من ذلك. فشق عليه الأمر ولجأ الى زوجة الخليفة الخيزران وكل من يلوذ بالمهدي ليعفيه من الصيام.فلم يجبهم. واخيرا نصحه احد اصحابه بأن يلوذ بربطة، ابنة ابي العباس السفاح، فإنه لا يرد لها طلبا. فرفع اليها بهذه الرقعة، يقول

فيها:

ابلغا ربطة اني كنت عبدا لأبيها

فمضى يرحمه الله واوصى بي اليها

واراها نسيتني مثل نسيان اخيها

جاء شهر الصوم يمشي مشية ما اشتهيها

قائدا لي ليلة القدر كأني ابتغيها

تنطح القبلة شهرا جبهتي لا تأتليها

و لقد عشت زمانا في فيافيّ وجيها

في ليال من شتاء كنت شيخا اصطليها

قاعدا اوقد نارا لضباب اشتويها

و صبوح وغبوق في علاب احتسيها

ما ابلي ليلة القدر ولا تسمعينيها

فاطلبي لي فرجا منها واجري لك فيها

و ذكرها بأنه اذا مضت ليلة القدر فقد فني الشهر. فسألها ان تكلم امير المؤمنين في إعفائه العام القادم. وذيل رسالته بهذه الابيات:

خافي الهك في نفس قد احتضرت

قامت قيامتها بين المصلينا

ما ليلة القدر من همي فأطلبها

إني اخاف المنايا قبل عشرينا

يا ليلة القدر قد كسّرت ارجلنا

يا ليلة القدر حقا ما تمنينا!

يقول الراوي وعندما قرأت كامل القصيدة ضحكت ودخلت على المهدي فشفعت له وانشدته الشعر فضحك حتى استلقى وعفى عنه واجازه بعشرة آلاف دينار! وهنا اصبح الأجر على قدر المعصية!

رحمك الله يا محمد عبده!

اصبحت شبكات الانترنت مثل الوليمة على سمكة. طعمها لذيذ وفوائدها كثيرة للمخ وللبدن. بيد ان رائحتها كريهة وتجمع عليك الكلاب والقطط من كل فج عميق. لا يدري المرء إن كان ما تحمله الانترنت صحيح ويعتد به او كاذب تحذرمنه او مغشوش إياك وإياه.

و كان من ذلك ايميل وردني مؤخرا عن تقرير علمي صادر من جامعة جورج واشنطن في الولايات المتحدة. يتناول التقرير الاسلام والمسلمين واحوالهم من حيث تطبيق مباديء الدين الحنيف، ولاسيما في ميادين الاقتصاد والتعامل. ويعطي التقرير قائمة بأسماء معظم دول العالم. المفاجئة العجيبة فيها ان الدول التي تطبق مباديء الاسلام ليست اسلامية – حسب ما قاله هذا التقرير. ايرلندا اول دولة في تطبيق الاسلام. تليها الدانمرك ثم لوكسمبرغ فالسويد فالنرويج. كل الدول التي نعتبرها دولا اسلامية تأتي في آخر القائمة. هكذا قال احد الباحثين المسؤولين عن التقرير: "إن الكثير من الدول التي تعرف نفسها بأنها دول اسلامية لا تتبع في واقع الامر مباديء الاسلام."

يؤسفني ان اعترف بانني لم اطلع على نص التقرير وتفاصيله، فلا ادري ما هي المباديء التي يعتبرها اسسا للدين الاسلامي وكيف جرى تقييم تطبيقها او تجاهلها. فسكان ايرلندا مثلا يأكلون لحم الخنزير ويحبونه ويتفننون في طبخه. وسكان الدانمرك يصنعون نقانق (صوصيج) من دم الحيوان ورأيتهم يأكلونها عند الفطور. وهو ما يتناقض بالطبع مع الدين الاسلامي. ولكن بعين الوقت نرى سكان الدانمرك والسويد والنرويج يتمتعون بضمان اجتماعي وخدمات صحية مجانية عالية ويغيثون الفقير وابن السبيل ويقبلون اللاجئين ويعاملونهم معاملة المواطنين. وهو ما لا تطبقه اكثر الدول الاسلامية.

ما انتهيت من قراءة هذا الايميل الذي مررته الى اصدقائي حتى تذكرت تلك الكلمات الخالدة التي تفوه بها الشيخ محمد عبده رحمه الله بعد زيارته لفرنسا. لاحظ رقة الناس فيها وتعاملهم الصادق وخدماتهم الاجتماعية ونحو ذلك مما يعرف عنهم فقال لدى عودته الى بلاده، مصر "رأيت الاسلام في فرنسا ولم ار مسلمين وعدت لمصر فرأيت المسلمين فيها ولم ار الاسلام."

بيد ان الشيخ الفقيه عاش في زمن لم يعرف الناس فيه ولم يتصوروا ما يقوم به داعش والنصرة والقاعدة وسواهم من المتشددين والارهابيين الآن بإسم الاسلام من قتل وتدمير ونهب واغتصاب وتمزيق لدولة الاسلام وتشويه لإسم الاسلام ويعتبرونه جهادا في سبيل الله يتباهون به بين شعوب

العالم. ولكن يظهر ان الاساتذة في جامعة جورج واشنطن قد اخذت بمعيارالشيخ محمد عبده في تقييم قيم الاسلام وتعاليمه ووصاياه.

صفحات من التعاون العربي اليهودي

في زيارة للمغرب قمت بها مؤخرا اكتشفت ان الأحياء اليهودية هناك يسمونها بالملاّح (بتشديد اللام) استغربت من التسمية فاستقصيت الموضوع. تبين انها تعود لعهود كان اليهود فيها يحتكرون تجارة الملح هناك. وكان الملح في القرون الغابرة يلعب دورا مشابها لدور النفط في عصرنا هذا . ياما جرت حروب وحروب بشأنه. لم يلتفتوا الى اخطاره واضراره المهلكة. الم اقل؟ تماما مثل النفط.

و كان السلاطين عندئذ يفعلون ما يفعلونه اليوم. يقطعون رؤوس كل من يعارض او يفكر. ولكنهم لم يثقوا بولاتهم فطالبوهم بإرسال رأس الضحية للتأكد من قطعه. تطلب ذلك ان يملحوا الرأس لئلا يتعفن في الطريق الطويل ويزعج السلطان بجيفته. واستطاع اليهود ان يفوزوا بعقد المهمة في ان يتولوا مهمة تمليح رؤوس المسلمين الذين امر مسلمون آخرون بقطعها. صفحة بديعة من صفحات التعاون العربي اليهودي.

ذكرتني هذه الصفحة بصفحة مشابهة عرفناها في العراق. فرض العثمانيون ضريبة على دفن كل مسلم شيعي في النجف الأشرف. وبالطبع لم يتعبوا انفسهم في جمع الاتاوة فأعطوها باللزمة. وفاز بالعقد اليهود ايضا. راح تاجر يهودي يجبي اتاوة من كل مسلم شيعي قبل ان يسمح لهم بدفنه في وادي السلام. واستطيع ان اتصور هذا التاجر يبدأ يومه بالدعاء: يا ربي موّت الشيعة وما تخسرني!

مرت جنازة امام قهوة العباخانة فقام هذا التاجر يمشي وراءها بخشوع ثم عاد مكتئبا ولم ينقطع من البكاء. "اشنو هذا يا ابو سليم؟ كل هالبكا على واحد من المسلمين الكويم؟"

سألوه فأجاب: "انا قأبكي علينو؟ انا ابكي على حالي. سألتو عالميت. قالوا اسمه عمر ابن عثمان."

التجارة الأخرى التي فرضها العثمانيون على اليهود كانت صنع العرق. تفرغ لها رجل في سوق حنون. وبالطبع لم يكن البيع بالمقاييس المترية او في الواقع بأي مقاييس. كان يعرف زبائنه ويعرف كم يحتاج كل واحد منهم ليسكر. ويبيعه "حق السكرة". جاءه ابو جاسم من محلة الجعيفر وطلب حق السكرة. دار له كمية في قنينة واعطاه إياها. "لا ابو حسقيل هذا مو كافي. ما راح اسكر." اكد له العرقجي ان الكمية كافية واقنعه. دفع له عشرة قروش ومضى بها. مضى نصف الليل واستنفذ الكمية ولكنه شعر بأنه ما زال صاحيا. "ها الكلب اليهودي ابو حسقيل غشني. قلت له هذي ما تكفي وعاندني. الملعون قشمرني. والله لا ارجع عليه والعن ابوه."

كانت ليلة ممطرة وتحولت ازقة بغداد من الجعيفر لسوق حنون الى اكوام من الطين والأوحال. ولكن ابو جاسم لبس يمنيه واقتحمها، يقع ويقوم ويقوم ويقع والمطر يزخ عليه حتى وصل بيت ابو حسقيل وراح يطرق على الباب بعنف وغضب: "لك ابو حسقيل كلب الله يلعنك. قلت لك هالكمية مو كافية. آني بعدني مو سكران."

قام الرجل المسكين من فراشه وفتح الباب ورأى زبونه بتلك الحالة، جراويته وصايته كلها طين والماء ينقط منها: "زين، زين ابو جاسم. بس لا تزعل. راح اعطيك عوازة. لكن بس اريد أسألك هو اللي يطلع من بيته ويمشي من الجعيفر لهوني بهالمطر والطين، هو صاحي أو سكران؟!"

كان هذا في ازقة عقد اليهود الفقيرة من بغداد. ولكنهم انتقلوا فيما بعد في الاربعينات والخمسينات الى المنطقة العصرية الجديدة في البتاويين. انتشرت في هذه المنطقة حانات الخمر ودور البغاء. وكان بين المومسات الممارسات في هذه الدور بعض اليهوديات من نساء المنطقة. اتذكر منهن الغانية راشيل. كانت لها مؤخرة ممتلئة افتتن بها زملائي الجامعيون. كثيرا ما اقترضوا مني نصف دينار اجرة للأستمتاع بها. وطاب لها ذلك، ان يأتوها المسلمون من الخلف. فكانت تشير لفرجها وتقول هذا لبني اسرائيل وتشير الى دبرها وتقول وهذا للغوييم.

و كانت صفحة اخرى من صفحات التعاون العربي اليهودي.

كان من زبائنها المداومين زميل لي في كلية الحقوق عرف بتحمسه للقضايا العربية وكان يتكلم ويذود عنها في كل المجالس بما فيها دور البغاء. فيما كان يوما مكلكلا على مؤخرة راشيل، خطر له وهو يلج فيها ان يقول لها: تعرفين آني شنو ده اشعر هسة؟ ده اشعر وكأني افعل هذا بإسرائيل كلها وكل من يؤيدها.

واصل نشاطه الشبقي لثوان اخر حتى خطر لها ان تقول له: وانت بقى تعرف اشنو انا ده اشعر؟ انا بقى ده اشعر ان القضية العربية كلها في دبري.

و هذه كانت صفحة اخرى من صفحات التاريخ العربي المعاصر.

درس من روما

اذيع قبل ايام (كانون الاول/ ديسمبر 2014) أن ذلك النزاع المرير بين الولايات المتحدة وكوبا والذي استغرق نحو خمسين عاما قد انتهى بإتفاقية سلمية بين البلدين تضمن اطلاق سراح الامريكيين والمعارضين الكوبيين المعتقلين في هافانا من جهة ورفع الحصار عن كوبا وعودة العلاقات الاقتصادية بين البلدين من الجهة الثانية. تم الوصول لهذا الاتفاق المستحيل بين دولة بروتستانتية رأسمالية واخرى كاثوليكية شيوعية بفضل الجهود التي بذلها البابا فرانسس ومن حوله من الكرادلة في مفاوضات تجاوزت 12 شهرا. والبرنامج البابوي حاشد الآن بالمهمات الاصلاحية والتصالحية الاخرى التي ينوي الاضطلاع بها.

ما الذي ينبغي ان يعنينا من ذلك؟ قامت بهذا الدور المرجعية الكاثوليكية في الفاتيكان، ضمن تقاليدها الكنسية في السعي من اجل السلام والتفاهم. وهو امر اثار في نفسي هذا السوآل، لماذا لاتقوم مرجعياتنا الاسلامية بمثل هذا الدور فتتوصل لأنهاء النزاع والتقاتل في شتى جهات عالمنا الاسلامي، كاليمن وليبيا والعراق وافغانستان. نحن نقلد الغربيين في كل شيء، فلماذا لا نقلدهم بمثل هذا، ام يا ترى، نقلدهم فقط بالسفاسف والسلبيات؟

هناك الكثير من الجوانب الشريرة والسلبية في عالمنا الاسلامي، كالارهاب والفساد. لم لا تلعب المؤسسات الدينية دورا قويا في معالجتها فتصدرمثلا فتاوى بتكفير الضالعين فيها وحتى تحريم زواجهم ودفنهم في مقابر المسلمين؟ هناك الكثير من الامور التي تقتضي التدخل لإصلاحها. مما عزز شأفة داعش التفرقة الطائفية التي اجتاحت العراق. طالما شكى ابناء السنة والطوائف الاخرى من التمييز ضدهم في الوظائف والدخول للجامعات والبعثات. يقول المسؤولون هذا غير صحيح. ولكنه صحيح بدليل اضطرار الكثيرين للتشيع. آل القشطيني عائلة سنية عريقة في بغداد. سمعت مؤخرا عمن سموا انفسهم "القشطيني الحسيني!" وادعوا بأنهم قشطينيون شيعة!

كل من يحمل إسم "عمر" اخذ يعاني بسبب اسمه، يضطهد ويهان ويتعرض للاعتداء لمجرد اسمه. تقدم بعضهم للمحاكم لتغيير اسمه هذا بحجة ان "عمر" اسم معيب لا يصح استعماله! ومن جانبها اصبحت وزارة الخارجية الامريكية تعطي لجوء سياسيا لكل عراقي سني يحمل اسم عمر على اعتبار انه معرض للاضطهاد.

تقتضي هذه الممارسات السوقية والغوغائية تدخلا قياديا من المؤسسات والزعامات الدينية. اسهل

وسيلة مثلا ان يعمد الزعماء وعلماء الدين في العراق وايران الى تسمية ابنائهم بأسماء عمر او عثمان لأعطاء درس عملي للغوغاء والجهلة. كما يمكن تعميق هذا الاصلاح لمحاربة الحزازات الطائفية بالزواج المختلط، وهو في الواقع ما قام به بعض الشبان المتنورين في اختيار زوجات من الطائفة الاخرى جماعيا. مؤسساتنا الدينية مشغولة بكيفيات الطقوس وممارساتها والتشبث بالماضي والتعرض بمعتقدات وممارسات الآخرين بدلا من السعي لتجاوزهذه الفوارق وطي صفحات الماضي املا في تعميق الوحدة الوطنية والتقاء الاديان والقوميات والخروج من جهالات القرون الوسطى.

العداء والتمييز الطائفي من اهم اسباب المنازعات الوطنية والحروب الاهلية كما نجد في سوريا والعراق وكما جرى في اوربا في القرون الوسطى. ويلقي ذلك بمسؤوليات خطيرة على عاتق المؤسسات الدينية وقادتها لتوجيه الجماهير بعيدا عن التنازع الطائفي الكريه والقتّال بدلا من تضليلهم وإشغالهم بتبعات واحداث القرون المندثرة.

بين الله والانسان

كنيسة اثلبرغر من الكنائس الصغيرة المتواضعة التي استطاعت ان تحشر نفسها بين البنوك والشركات وبيوت المال الكبرى ودروب العاهرات والغانيات، في حي الاعمال المعروف في لندن بالستي. نسفها الارهابيون الارلنديون قبل سنوات واعيد بناؤها لتصبح مركزا للتبشير باللاعنف والسلام وحوار الاديان وتعايش الملل والنحل والتأمل الروحي. تقدم ندوات ودورات وجلسات ومحاضرات عن الايمان والاديان المختلفة والتأمل الروحي. تشمل برامجها حفلات موسيقية فولكلورية ودينية لمختلف الشعوب وكذلك جلسات حكواتية للأدب الشعبي والاثني. وهو سر ترددي عليها. فهي تعتبر الموسيقى والغناء وسيلة للحوار واللقاء بين الامم. سمعت فيها الكثير من الفرق الصوفية والقوالتية والاسلامية. وقبل بضعة اشهركان لنا موعد فيها مع حكواتي من سورية.

ضمت الكنيسة خيمة مؤثثة في الحديقة خصصت للتأمل الروحي. قيل لي ان المملكة العربية السعودية قد تبرعت بكامل تكاليف بناء هذه الخيمة الوفيرة. توجد فيها الكتب المقدسة لشتى الاديان، القرآن الكريم والانجيل والتورات والفيدا وزرادشت وغيرها. هناك ايضا كاسيتات لسماع التراتيل الدينية لشتى الطوائف. للكنيسة ايضا ساعة دقاقة تضرب بناقوسها اشارة الساعات. كثيرا ما ضايقتني بمقاطعتها للمتكلمين والمنشدين والعازفين. شكوت منها لأدارة الكنيسة، ولكنهم افهموني بأن في دقاتها حكمة. إنها تذكر السامع بمرور الزمن. يا ابن آدم، مهما تفعل فأيامك معدودة والساعة تجري والعمر يخلص.

قصدتها اخيرا لسماع فرقة تركية تقدم اغان عثمانية دينية. ولكنني وصلت قبل الموعد بكثير. فتوجهت الى الخيمة وجلست وانطلقت في تسبيحة صوفية، افكر واتأمل. بعد دقائق قليلة دخل شاب وشابة وجلسا في الزاوية المقابلة. ما لبثا حتى دخلا في نزوة غرامية. راحا يتحاضنان ويتعانقان ويتبادلان القبل. رأيت في ذلك خروجا سافرا عن الأدب والتقوى. فهذا مكان مخصص للعبادة والتلاوة والتأمل الروحي، وليس عشا للغرام. هممت بمكالمتهما وزجرهما. ولكنني عدت لمسائلة نفسي. تذكرت ان دينهما المسيحي يقول لهما ان الله هو المحبة. وهم يعتبرون الحب جزء من الايمان. هذا ما يقولونه مرارا. انا اتعبد بطريقتي وهذان الشابان ربما يتعبدان بطريقتهما، ربما كانا يطبقان ما يقوله الكاهن عندهم في صلواتهم. اللهم اعطني القدرة لان احب ولا تجعلني في حاجة لأن استحب.

من يدري؟ هذه مدينة لندن وليس مدينة البصرة ليتحير المحبون اين يتسترون ويلتقون. يستطيع الشاب الانكليزي ان يقبل حبيبته ويحتضنها في الشارع، في اي مكان يشاء. لماذا اختار هذا العاشق هذه الخيمة الكنسية الدينية بالذات ليتبادل الحب مع حبيبته؟ أم ترى ان الجو الروحي للمكان اثار فيهما هذا التألق العاطفي والرغبة الجامحة للتعبير عن الحب ببرائة وروحية؟ سمعت الكثير عمن قالوا بأن الايمان كثيرا ما يلتقي بالشوق والذوبان. حب الخالق في حب المخلوق. وحب المخلوق في حب الخالق.

و لكن لم قدر لي، انا بالذات، انا اكون متفرجا على هذه المعادلة وانشغل في حلها؟ افلا يحق لي ان اطلب من هذين الشابين ان يفتشا عن مكان آخر للحب ولا يكدرا مزاج المحرومين من الحب؟ وفيما كنت افكر بالجواب، متحيرا، مترددا، دقت ساعة الكنيسة الساعة السابعة لتذكرنا، آه يا ابن آدم! تذكر الزمن وقد آن الوقت لسماع المغنين الصوفيين يغنون عن الحب، حب الله، وحب الانسان. فخرجت وتبعني العاشقان.

كوميديات الفتاوى

للفتاوى في عالمنا العربي، كما لكل شيء في حياتنا السياسية، جوانبها الكوميدية الظريفة ايضا. انظروا لما يصدره داعش من فتاوى تحلل الحرام وتحرم الحلال وتبيح مجامعة الصبايا المنهوبات وبيعهن بأبخس الاثمان. وقد بادرت بعض الدول العربية الى حصر حق الافتاء فيمن يختاره المسؤولون، وبالطبع يأتمنون بهم ويطيعون توجيهاتهم. ولكن شتى المشايخ في شتى البلدان الاسلامية شدوا عمامات على رءوسهم وراحوا يصدرون فتاوى عجيبة اخذ القوم يتداولونها كباب من ابواب الفكاهة ولم اعد اعرف ما هو الجد فيها وما هو هزل مختلق. ولكنني ارشح هذه الموضوع كباب جديد من ابواب ادب الفكاهة العربية.

التقيت قبل سنوات بإمرأة ساقطة في احدى العواصم العربية. وكانت محجبة ومحتشمة في زيها ومظهرها وتقيم الصلاة في اوقاتها والصيام في ايامه. سألتها عن هذا التناقض. قالت ذهبت لدار الافتاء واستفتيتهم. اجابوني بأن الله غفور رحيم. وحالما سأتوب من هذا العمل واستغفره سيغفره لي على ان احافظ على اداء الصلاة. فترك الصلاة لا يغتفر – قالوا لها. وهكذا واضبت على البغاء ليلا واداء الصلاة نهارا.

نسمع في هذه الايام شتى الفتاوى العجيبة التي تردنا من مصر، ذلك البلد الذي يجيد مزج الظرف بالجد، التنكيت بالتبكيت. كان منها محاولة احد نواب الاخوان المسلمين استصدار فتوى تنص على اعطاء الزوج حق "مضاجعة الوداع" مع زوجته المتوفاة. ولكن الكوميديا هنا تختلط بالتراجيديا.يقوم فيها رجل حي بمضاجعة جثة ميتة، بما يسميه علماء النفس بالنكروفيليا.

من اظرف الفتاوى التي سمعتها مؤخرا، كانت فتوى منظمة "الشباب" في الصومال بتحريم لبس الستيان (صدرية النهدين) على النساء. لا بأس، فقد جرت في الغرب حملة "حرق الستيان" bra burning قبل سنوات كخطوة نحو تحرر المرأة ومساواتها بالرجل. ولكن هذا ما لم يكن في ذهن مفتي الشباب. فالفتوى تقول ان لبس الستيان حرام لأنه يؤدي الى غش الرجال بحجم ثدي الفتاة وشكله! علقت السيدة الفاضلة حليمة الصومالية على الفتوى وقالت: "اجبرتنا حركة الشباب على التحجب وفق طريقتها والآن تجبرنا على هز نهودنا!"

و كانوا قبلها قد اصدروا فتوى بتحريم لبس سراويل الجينز لأنها تنطوي على تشبه بالكفار. مما يعني في الواقع اننا نحن المبنطلين نرتكب الاثم يوميا بلبس السترة والبنطلون الذي جائنا من الكفار

ايضا. الحقيقة ان هناك فتوى اخرى تحرم البنطلون لأنه ينطوي على شطر جسم الانسان كما خلقه الله.

كثيرا ما يشكو الجمهور البريطاني من سلوك بعض المسلمين في تجاوزاتهم على القانون والنظام. وكان من آخرها قيام السيد احمد بإدارة عصابة لمجامعة الصبيات ثم ادمانهن على المخدرات فتسويقهن كعاهرات. لكنني ربما وجدت تفسيرا لذلك. سمعت مؤخرا فتوى عجيبة وظريفة في الموضوع اصدرها احد مشايخ المتشددين. قال إن للمسلم القادم الى بريطانيا ان يطلب حق اللجوء. وعندما يحصل عليه وتعطيه الحكومة مسكنا ومعاشا يذهب الى منتجع برايتن. يكتري بما استلمه من فلوس زورقا آليا يسير بها نحو عشرة اميال في عرض البحر ثم يستدير ويعود للساحل. وحالما يقترب من اليابسة يهتف "الله اكبر، الله اكبر!" ثم يقفز الى الارض ويعتبر نفسه فاتحا لها يتمتع بحق الفتح right of conquest الذي يجيز له ان يفعل اي شيء في هذا البلد الذي فتحه، يغتصب من يغتصب وينهب ما ينهب ويتجاهل كل شرائع هذا البلد!

الحلاج والعاني والتصوف الحروفي

للحروف العربية امتدادات في ميادين شتى. تغلغلت في هذه الايام في الفنون التشكيلية حيث تمخضت عن مدرسة الحروفية التي راح يمثلها عشرات الفنانين من سائر البلدان. في سالف الزمن استحوذت باهتمام المتصوفة فحصل لقاء بين فن الخط العربي والتصوف الاسلامي. يروي الخطاط المبدع عبد الغني العاني ان شيخ الخطاطين وعميدهم في تركيا حامد الآمدي الذي اجازه كان قد قضى حياته في الزهد والعبادة الصوفية. كذا كان الأمر مع زميلي وصديقي الخطاط السوداني عثمان وقيع الله. بعد السنين الطويلة التي امضاها في السكر والفسق تحول الى الايمان وانتمى للمدرسة الصوفية. وفي ظلها كرس ما تبقي من عمره في حلم سائر الخطاطين المسلمين، الا وهو كتابة المصحف الشريف.

دخل صديقي عبد الغني العاني هذا الميدان من بوابة اخرى. كانت الحكومة العراقية قد بعثت به لدراسة القانون في السوربون بفرنسا. تطلب ذلك منه تعلم اللغة الفرنسية اولا. وكان الكتاب الذي رشح له في تعلم هذه اللغة، موسوعة المستشرق الكبير ماسنيون في شرح ديوان الحلاج. غاص فيها عبد الغني فأكتشف ان هذا الشاعر المتصوف الذي افتتن به العالم الفرنسي وقضى معظم حياته في تتبع آثاره، كان رجلا عراقيا تمثلت فيه الروح البغدادية خير تمثيل ودفن فيما نعرفه الآن بمقبرة الشيخ معروف. تذكر عبد الغني القبة البسيطة التي ضمت قبره. وتذكر اكثر من ذلك، انه عندما كان صبيا يعيش في محلة المشاهدة المشرفة على مقبرة الشيخ معروف، كان يلعب كرة القدم ما اصحابه بجانب تلك القبة وكثيرا ما كانوا يتمرنون بتهديف الكرة على حيطانها. لا ادري مذا قال الحلاج في قبره وهو يسمع هؤلاء الصبيان الكرخيين يضربون جدران قبره.

واصل العاني دراسة ديوانه فلاحظ فيه هذه اللفتات الحروفية. وكان عبد الغني قد تعلم فن الخط على يد شيخ الخطاطين العراقيين، هاشم الخطاط الذي منحه اجازة مدرسة بغداد العباسية. حملها معه لفرنسا دون ان يتوقع هذا الانقلاب في حياته من تلميذ قانون الى استاذ خط (حيث اصبح فيما بعد استاذا للخط العربي في جامعة السوربون).

اربع احرف بها هام قلبي

وتناسيت بها همومي وفكري

الف قد تألف الحق فيه

ولام على الملاحة تجري

ثم لام زيادة في المعانيثم هاء أهيم بها، أ تدري؟

قال الحسين بن منصور الحلاج وهو يشير بها الى ما كان يسميه بالذات الالهية "الله"، الكلمة التي اصبحت هوى سائر الخطاطين في مشقها والتفنن بخطها، كما فعل صاحبي العاني. وظلت الهاء هوى الدراويش يهيمون بها في جوقاتهم: هو،،هو،هو...

و كذا غدت هوى الخطاطين واحتلت المكانة الرائقة في الحسابات الحروفية التي انتقلت الينا ضمن تراث الاسرائيليات.

فيما رحت امتع نفسي بلوحات هذا الخطاط العراقي في اتيليته بباريس، واتفرج على خطه لكامل ديوان الحلاج، كان يصاحبني بذكرياته عن بغداد بكثير من الاسى. "لقد تعلمت الخط من مشق ما كان في بغداد من آثار: لوحة على ضريح ابي حنيفة: "سلوه تضرعا وادعوه حنيفة – وبعد استرحموا لأبي حنيفة". لقد هدموها ومشقتها بعد ان رأيتها ملقاة في الزبالة!

الاعتزال فرصة ضاعت

في اواخر الدولة الاموية وانتشار امبراطورية الاسلام الى مشارق الارض ومغاربها، دخلت تحت مظلة الاسلام شتى الشعوب المختلفة بتراثها وتجاربها الخاصة بحيث اصبح من الصعب عليهم تفهم المعتقدات الاسلامية الكلاسيكية وقضايا الخلافات المستحكمة، كما يتعلق بخلافة علي ومقتل الحسين. ظهرت الحاجة لآيديولوجية جديدة تسهل عليهم استيعاب الدين الجديد وتجاوزالحزازات والمنازعات. كما بدأ بعين الوقت شيوع الفلسفة الاغريقية التي تؤكدعلى العقل والمنطق، وبصورة خاصة تعاليم ارسطو، بعد ترجمة كل ذلك الى اللغة العربية.

استجاب لهذه العوامل في القرن الثاني بعد الهجرة مفكرون اسلاميون في البصرة، تلك المدينة الاممية، وفي مقدمتهم واصل بن عطاء الغزال والجاحظ وعمرو بن عبيد وغيرهم. وبهم تأسست ضمن المدرسة الكلامية فرقة المعتزلة التي تبناها وشجعها فيما بعد الخليفة المأمون. وقد اطلق عليهم هذا الاسم لاعتزالهم عن الدخول في النزاع بشأن خلافة الامام علي.

آمن المعتزلة بالعقل بدلا من النقل وان العقل والفطرة السليمة يكفيان لأرشاد الانسان فيما يتعلق بالخير او الشر، بما يعني حرية الارادة. وعليه فإن الانسان هو الخلّاق لأعماله، وكل ذلك على خلاف فرقة الجبريين الذين يعتبرون ان كل ما يفعله الانسان مقدر عليه من الله تعالى. ومن مبادئهم الايمان بالمنزلة بين منزلتين. فالمسلم الفاسق والآثم ليس كافرا وليس مؤمنا. ويتلقى عذابه في النار ولكن بأقل درجة من الكفار.

رأى المعتزلة ايضا ان القرآن الكريم مخلوق وبالتالي يرتبط بالاحداث حسب وقوعها. من سننهم ايضا الايمان بالعدل الذي يتضمن بالتالي العدالة الاجتماعية.

انتشرت افكار المعتزلة انتشارا كبيرا في عهد المأمون الذي اتخذها كدين للدولة. وصلت ارجاء بعيدة من الامبراطورية فشاعت في اليمن وعمان والكثير من اجزاء الجزيرة العربية. تفرعت منها فرق ثانوية لها تعليمها وتفسيراتها الخاصة. استمر الحال كذلك الى ايام الخليفة المتوكل الذي انقلب على المعتزلة وحرم تدريس مبادئها بل راح يضطهد أئمتها. وبذلك حصل انحسار في حركة المعتزلة فزال اثرها كليا في العراق والشام ومصر ومعظم ديار الاسلام.

و يبدو لي ان ذلك كان خسارة كبيرة للمسلمين والاسلام ادت الى انحباس التفكير والتفسيرو الاجتهاد والتفاعل مع التطورات الجارية. وربما كان بإمكانه تخليص الشعوب الاسلامية من هذه

المنازعات الطائفية، ولاسيما بين السنة الشيعة. انتبه لذلك مؤخرا بعض المفكرين المحدثين فسعوا الى تجديد المعتزلة والتبشير بها. ودخل بعض الشباب في هذه الحركة كالمطربة اميرة. بيد ان الاحداث الجارية مع الاسف والتشدد والتعصب والارهاب لم يترك فسحة لمراجعة الفكر المعتزلي والدعوة لأفكاره.

السلام يا سلام!

يجتمع تقريبا سائر المسلمون والعرب على هذه التحية "السلام عليكم"، وهي سلام اهل الجنة،جنات عدن "لا يسمعون فيها لغوا الا سلاما"، كما يقول القرآن الكريم. وقد كان اهل الجاهلية يحيون بعضهم البعض بكلمات "انعم صباحا". يروي ابن هشام أن عمير بن وهب دخل على الرسول صلى الله عليهم وسلم وحياه بتلك التحية فرد عليه رسول الله قائلا: قد اكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير. بالسلام، تحية اهل الجنة."

بيد ان المتعلمين عندنا في العصر الحديث تأثروا بالغربيين فاعتمدوا تحياتهم، صباح الخير ومساء الخير وكلاهما ترجمة حرفية لكلام الفرنسيين والانغلوسكسون. بونجور وبونسوار، وغود مورننغ وغود ايفننغ. وهي تحيات تذكرنا بتحيات الجاهلية، كما ذكرت. وفي كوردستان العراق واصل اهل السليمانية الذين يعتزون بروحهم "التقدمية" هذا المنحى في حملة "تكريد" اللغة، فأخذوا يهجرون كلمة "السلام عليكم" ويستبدلونها بكلمة بياني باش (صباح الخير) وئيواره باش (مساء الخير).

نقول السلام عليكم ويرد السامع علينا بكلمتي وعليكم السلام. بيد اننا في العراق اضفنا اليها شيئا آخر من وحي حياتنا القائمة على العنف. تأتي الى القوم الجالسين فتحييهم قائلا السلام عليكم ويردون عليك وعليكم السلام. وما ان تجلس حتى يلتفت اليك كل واحد منهم بقوله "الله بالخير". وعندئذ يقتضي عليك ان ترد بمثلها "الله بالخير"، واحدا واحدا. تقولها مع رفع يدك الى صدغك بما يشبه التحية العسكرية. وفي كردستان يختصرها الكورد فيقولون "بخير". لا ادري إن كان مقاتلي البيشمركة يقولون ذلك مع لمسة على بندقيتهم الكلاشنكوف.

لهذه الكلمة اهمية خاصة. فإذا لم ينطق بها احد من الحاضرين، او كلهم فعليك ان تعتبر ذلك اشارة لعدم احترامك ووجود ضغينة منه ضدك. فتستعد للنزال! وانت بدورك اذا لم ترد على واحد منهم بكلمة "الله بالخير" فهو اشعار منك اليه باحتقاره وتحديه ومعاداته. لا ادري، إن كان ذلك قد اسفر فعلا عن عركة ومعركة دامية نشبت فعلا بنتيجة الامتناع عن ترديد هذه التحية العراقية البحته.

لكنني لاحظت شيئا آخر في العراق يرتبط ايضا بالعنف. الفلاحات والنساء الشعبيات لا يقلن السلام عليكم. فهاتان الكلمتان تعبران عن السلام وعدم القتال. وليس من شأن المرأة ان تقاتل. فالموضوع خارج ساحتها. السلام عليكم تحية ذكورية ترتبط بالسلم والحرب. بدلا من ذلك، تسمع الفلاحة العراقية تحييك بكلمة "بالقوة" او مجرد "قوة". تعني دعاء الى الله عزوجل ان يمدك بالقوة. ولك

ان تفسر اي نوع من القوة تفكر بها المرأة التي تحييك بهذا الدعاء الى الله. ولكل شيء ظروفه. وسيسرني ان اسمع من القارئة الفاضلة فاطمة الزهراء ان تلقي لنا بضوء على هذا الموضوع في التحيات المتبادلة بين النساء والرجال في المغرب العربي.

اللص الشريف

لقد سمعنا عن البغي الفاضلة. قرأنا حكايتها في رواية جان بول سارتر عن البغي الامريكية البيضاء التي تطوعت فشهدت في المحكمة لتخلص رجلا اسود بريئا من الاعدام وتثبت ارتكاب الجريمة من قبل رجل ابيض حاولوا التستر عليه. عملت هوليود فلما رائعا عنها بالابيض والاسود.

و سبق لي ان كتبت عن السمسار الشريف، القوّاد المشهور الذي خرج من الكلجية وركب سيارة تكسي نفرات. ثم امر السائق بأن لا يأخذ في السيارة امرأتين محصنتين ودفع للسائق اجرتهما وقال له انا قوّاد معروف. اذا ركبت معي هاتان السيدتان فسيفكر الناس انهما قحبتان خرجت بهما لأسمسر عليهما. وهذا حرام. "امشي ولا تشيلهم وانا اعوضك عن اجرتهن!"

قوّاد شريف وابن اوادم. سأشهد له امام الله يوم القيامة. ولكن كان هناك ايضا في بغداد ايام الخير حرامي شريف ايضا. سيتعجب القراء بعد ما سمعوا عن حرامية الحكومة في هذا الزمان. سيسألون، والحق معهم، يعني صحيح كان هناك حرامي شريف يوما ما في بغداد؟ حرامي غير الذي ظهر في الفلم الامريكي الخالد "حرامي بغداد"؟

اقول لهم نعم. وكان قصّاص جيوب ممتهن. وكانت منطقته من الشورجة الى باب المعظم. حدث له في باب الاغا ان نشل جيب رجلا افندي. كان مارا في الشارع ينتظر سيارة تكسي. نشل من جيبه محفظته السمينة. عاد بها الى البيت وفتحها. هم بأخراج ما كان فيها من الدنانير. ولكنه لاحظ صورة فيها لرجل يعرفه من التلفزيون، محمدالقبانجي، سيد المقام العراقي. ومما في الجزدان من اوراق تبين له انه يعود لذلك المطرب الشهير الذي يعتز به كل عراقي. والظاهر ان هذا القصاص جيوب كان من عشاق المقام، وبصورة خاصة اغاني القبانجي. اعوذ بالله، – قال – شلون اتجاسر وامد يدي في جيب حبيبنا القبانجي؟!

ترك عشاءه وخرج من البيت يسأل الناس عن بيت محمد القبانجي. اين يسكن؟ لم يهدأ له بال حتى اكتشف العنوان. نام نوما قلقا في اسوء ليلة من حياته. ما ان اطل نور الصباح حتى خرج من بيته حاملا جزدان القبانجي. طرق الباب فخرج اليه ابو قاسم بدشداشته المقلمة، اسرع وقبل يديه معتذرا مستغفرا " سامحني استاذنا! والله ما عرفتك ومديت يدي في جيبك وبكت جزدانك! هذا هو والله بيني وبينك ما اخذت منه اي شيء." فتح الجزدان الجلدي الاسود ليفرجه على محتوياته ويطمئنه. ابتسم المطرب الكبير وشكره. فتح المحفظة والتقط منها ورقة بخمسة دنانير." يا ابني هذي مكافئة لك

على امانتك. "

اعوذ بالله، يعني تجازيني على فعلة وسخة وانا قصاص جيوب! وقصيت جيبك وتكافئني! اعوذ بالله. بس سامحني.

انصرف وعاد الى قهوة الميدان حيث تتجمع عصبة قصاصي الجيوب وروى لهم ما حدث." الله يعمي عينك! يعني اكو واحد في بغداد ما يعرف القبانجي وشكله!

و قضى قصاص النشال الشريف بقية الاسبوع ينتظر ليلة القبانجي على راديو بغداد

الاسلام قوة

هذا ما كشف عنه الربيع العربي: قوة الاسلام السياسي. فبعد افول الحركة القومية بنكسة 1967، وطموحات الوحدة العربية بانسلاخ سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة، وانهيار الحركات اليسارية بسقوط المنظومة السوفيتية شرقا وفشل الاشتراكية غربا، خلت الساحة للاحزاب الاسلامية فأبدعت في اجتياحها. كشف الربيع العربي ايضا عن ضعف العلمانيين والديمقراطيين واللبراليين. عجزوا عن الالتحام في كتلة فعالة. تبين انهم مجرد نخبة " بتاع صالونات"، يحتسون فيها شرابهم ويستمعون لبتهوفن وموتزارت والشعر الحداثي، وعندما تضيق بهم الارض يلوذون بفلذة اكبادهم، باريس وفيينا ولندن. لم تمتد جذورهم في اعماق شعوبهم. اين ذلك من استعداد الاسلاميين للصمود والاستشهاد على النحو المهيب الذي رأيناه في سوريا. اصبحت الاحزاب الاسلامية الاحزاب الشعبوية الوحيدة.

نجحوا، لاسيما بمصر، بتغلغلهم في الاحياء الفقيرة، وما اكثرها. وهناك راحوا يقومون بما لم يقم به العلمانيون، بمد ايديهم لمساعدة المستضعفين والمحرومين والعاطلين. وفروا لهم خدمات طبية واجتماعية وخيرية. وبتبني الحياة الديمقراطية والبرلمانية بتشجيع القوى الغربية، استأثروا بأصوات الناخبين وتسنموا الحكم. مبروك عليهم وكما نغني في العراق بالاعراس " شايف خير وتستاهلها!"

لكن النجاح في الحكم اصعب من الوصول اليه. هل سيستطيعون حل مشاكلنا الكبرى؟ فإعطاء الفقير رغيف خبز وحفنة اسبرين اسهل بكثير من توفيرعمل له. مشكلة مصر والكثير من بلداننا، كثرة السكان وتفشي البطالة بين المتعلمين. على الاخوان ان يدركوا ذلك ويدركوه جيدا. ولا يتحاشونه بإلقاء المسؤولية على القدير القادر. وهذه مشكلتهم. فإيمانهم يحث المسلم على الزواج، والزواج بأكثر من واحدة حيث يجد سبيلا ويعدل، وبالانجاب لنتباهى بأولادنا بين الامم. هل سيستطيع الاخوان تجاهل هذا الركن ايضا من برامجهم ويستحصلون على فتاوى تنظم العائلة وتحدد النسل وتبيح وتشجع موانع الحمل؟

اذا استطاعوا ذلك فسيحرزون نصرا تاريخيا. بيد ان نصرا آخر في متناول يدهم وتأمر به شريعتهم، الا وهو القضاء على الفساد. اولا بإقناع الجمهور بأن الرشوة اثم سيحاسبون عليه يوم القيامة، إن لم يكن في يومنا هذا. وثانيا، ان يقتنعوا هم بذاتهم بأن سرقة اموال الدولة اثم اكبر. يستطيعون الاقتداء بما فعله صدام حسين في ايامه الحلوة الاولى عندما بث الجواسيس على الموظفين والمقاولين للكشف عن تجاوزاتهم ونشر نوع من الارهاب ضدهم. هذه هي الجاسوسية

الحلال: الكشف عمن يرتشي ويختلس وليس عمن يفكر وينشر.

بقي انجاز آخر عليهم تحقيقه. وهو ان يتذكروا كيف وصلوا هم الى الحكم. وصلوا بالديمقراطية والحرية والجهاد المدني. القنابل والاغتيالات وحرق القاهرة لم توصلهم للحكم. القضاء على الارهاب وفكرة نشر الاسلام بالسيف واصلاح المجتمع بالثورة ومحاربة الصليبيين الاوربيين هدف آخر في امكانهم غرسه في نفوس كل المسلمين وغير المسلمين. ومثل ذلك يقال عن قمع الطائفية والتمييز الديني والاثني. عليهم ان يعيدوا للاسلام ما كان عليه زمن الخلفاء والعثمانيين، يوم اصبح التعايش الديني والطائفي بيننا موضع حسد الاوربيين.

دعاء للأخوان

عبر عمر المصري ومستور سالم وغيرهما من اخوان مصريين عن اعتراضهم عما قلته بشأن الاخوان المسلمين ومصر. وآلمني اعتراضهم هذا لأنهم تصوروا انه يعودلأنني عراقي. وآلمني اكثر لانه نم عن عدم فهمهم لكل ما كتبته في هذه الزاوية طوال العشرين سنة الماضية. اوضحت مرارا انني لا اشعر بالانتماء لأي بلد. انتمائي الوحيد لبني الانسان، والفقراء من بني الانسان اينما كانوا. ولهذا دعوت الى الله واكرر دعائي الآن في ان ينجح الاخوان في حل مشكلة البطالة والفقر في مصر. هذا ما احلم به واتمناه من كل قلبي. كل ما في الأمر انني لا ارى انهم سينجحون في مسعاهم هذا. ادعو الله ان اكون مخطئا. كل الدول الجمهورية العربية غارقة في مشاكل لا سبيل لحلها في جيلنا هذا. وكلنا في الهم سوا. آسف! يجب ان استثني العراق فهموم العراق اسوء من هموم كل البلدان العربية الاخرى، ربما باستثناء اليمن السعيدة. وعلى ذكر العراق، اقول انني نشرت نحو 30 كتابا منها 11 عن فلسطين وواحد عن عمان وليس بينها كتاب واحد عن العراق. وما قلته عنه هو ان الانجليز ارتكبوا جريمة كبرى بحق العراقيين عندما اعطوهم الاستقلال ونفضوا يدهم من العراق.

بالطبع انني احمل محبة خاصة للمصريين لما عرفته منهم عن روح النكتة. ويعود جزء كبير من اسلوبي الساخر لما تعلمته منهم، وبصورة خاصة استاذي الشيخ عبد العزيز البشري. وابدع ما في المصريين تفننهم في الضحك على انفسهم. ولكن ويل للغريب الذي يحاول ان يضحك عليهم. انهم يحتكرون هذا لأنفسهم فقط. ويظهر انني ارتكبت هذه الخطيئة فداعبتهم بموضوع صناعة الرجال وتصديرهم. ولا يسعني هنا غير ان اعتذر. لكن المشكلة هي انني لا اعتبر نفسي غريبا عن مصر فأنا احبها وازورها اكثر مما ازورالعراق.

و من العراق، اعترض شاكر الكركري على قولي بأن الزعماء الثوار غير مؤهلين للحكم واشار الى نجاح مانديلا رغم السنين التي قضاها في السجن. يا سيدي لابد لنا ان نعتبر هذا الرجل من الفلتات التاريخية. وهذا هو ما اثار اعجاب العالم كله بحيث تسابقت الدول على منحه نحو 250 جائزة، منها جائزة نوبل. من من زعمائنا الثوريين نال ذلك؟ انه من المعجزات التي تلدها البشرية من لحين لحين، كنبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ومع ذلك فإن مانديلا ترك الحكم بعد اربع سنوات واعتزل. مرة اخرى، من من زعمائنا فعل مثل ذلك؟ هذا ما يفعله الزعيم النزيه. غاندي وسوار الذهب والغنوشي فعلوا ذلك واستحقوا منا التقدير.

العلمانية الاسلامية

اخذت الحركات الاسلامية السياسية اشكالا متعددة. ولكنني وجدت قاسما مشتركا واحدا يجمعها. وهو الوصول للحكم. كانت تؤمن بالعنف وترفض الديمقراطية باعتبارها مناقضة للاسلام. والآن تخلت عن كل ذلك بعد ان اكتشفت انه لا يوصلها للحكم. فعلت مثل ذلك بالنسبة لإسمها. لاحظت ان الاسلام والمسلمين اصبحت كلمة غير مستحبة عالميا، فحذفت اي ذكر للاسلام. اصبحت تسمي نفسها بهذه الكلمات الجذابة، النهضة والحرية والعدالة وهلمجرا. بالطبع ما ان اعلن عن الانتخابات حتى هرعت للمشاركة، بعد ان كانت تعتبرها مناقضة للدين.

والآن وقد وصلوا للحكم، اخذوا يتخلون حتى عن برامجهم الاسلامية. لا احد منهم يذكر تطبيق الشريعة. حمادي الجبالي اشار فقط الى القيم الاسلامية كما سادت في عهد الخلفاء الراشدين. وحصرها بالشفافية والديمقراطية. لا ذكر للزي الاسلامي او الحجاب او اي قيود على تقاليد الحياة الاوربية، او فرض اي شيء جديد اسلامي. اشار الى حاجة تونس للقروض، وهو ما سيعني طبعا دفع فوائد (ربى). استمعت لتصريحاته وتناول جلها مواضيع التنمية وتوفير العمل وتشجيع السياحة وبناء الاقتصاد التونسي على اسس عصرية. وكذا جائت تصريحات الحرية والعدالة في مصر. الجبالي رجل عالم ولكن لم يتلق علمه من الازهر او قم وانما من الجامعات الغربية وتخصص في التكنولوجيا. وعبرعن تحصيله العلمي في مخططاته للنهوض بتونس.

منهجهم في الواقع منهج اي حزب لبرالي وطني. قد يحترم كما قال، القيم الاسلامية، ولكنه لا يقوم اساسا على ما فعله ابو بكر او عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وانما على ما فعله نابليون ودزرائيلي من اقتصاديات وبنية الدولة الحديثة. لا يكتب وزير المالية ميزانية الدولة حسب ما اوصى به ابو حنيفة وجعفر الصادق وانما حسب ما اوصى به آدم سمث وكينز. في ظل اللبرالية الاسلامية التونسية جرى إحياء البورغيبية والاشادة بالعلمانية التركية. وحسنا فعلوا. والا فستعلن تونس افلاسها. الاحزاب الاسلامية كالاحزاب المسيحية في اوربا. تستعمل الدين اسما وتطبق اللبرالية الرأسمالية عملا.

يتضح من هذه القراءة ان الحركات الاسلامية السياسية لم تفعل غير ان استعملت الدين وشعار الاسلام هو الحل لمجرد جر البسطاء من الجمهور وإغرائهم بتأييدها والتصويت لها. لا اكثر ولا اقل. انها باختصار ضرب ماكر مما يسمى بالانتهازية. واذكر القراء بما قلته سابقا. لن ينفذوا الشريعة او

يطبقوا اي شيء اسلامي باستثناء بعض التزويق والزخرفة، مثل تشجيع الحجاب والنقاب وتحاشي المني جوب. سيفعلون ما فعله غيرهم فيوزعون المناصب على ذويهم واصحابهم. وهو ما جرى في تونس. بقيت المرحلة الثانية التي ستنتظر بضع سنوات: وهي مرحلة الضلوع في الفساد التقليدي.

يتخوف العالم من الاسلاميين ومما قد يفعلونه. ففي افغانستان دمروا اهم الآثار السياحية والتاريخية بنسف التماثيل الهندوسية. صرحوا في مصر اننا لن نفعل ذلك ولكننا سنغطي بالشمع التماثيل العارية! تعايش المسلمون مع هذه التماثيل منذ الفتح ولم يعترضوا عليها. ولعمري، هذا هو الفرق بين المسلمين،بناة الحضارات والاسلاميين مدمروها.

الارهاب والاسلام السياسي
جريمة وكارثة

ما الذي تريده داعش؟

حيثما جاء ذكر داعش ترددت الاسئلة على السنة السامعين. من قام بمدهم بالاموال؟ من زودهم بالسلاح؟ من يرسم لهم هذه المخططات العسكرية؟ ما الذي يقصدونه حقا من تحركاتهم؟ واخيرا ما الذي يرجونه من وراء هذه البربرية المتناهية التي اتخذوها اسلوبا لسياسة " دولة الاسلام" التي يدعون بها؟ وما هي بدولة ولا هي من الاسلام في شيء.

لقد سبق لي واشرت الى انها مجرد عصابة من النهابين الذين خرقوا في مسعاهم هذا كل القيم الانسانية. لا يوجد في التاريخ من يمكن مقارنتهم بهم غير فلول هولاكو. بيد انهم يبزون حتى المغول بأعمالهم. فلم يرد في التاريخ ان هولاكو كان ينهب النساء ويبيعن في الاسواق ولا اقام اورجيات اباحية بإسم الدين، ولا تخصص في ذبح من كرس نفسه لأفعال الخير. وهذا تخصص عجيب في اساليب هؤلاء الارهابيين. فهم في آخر المطاف جبناء يتحاشون التحرش بالقوي، كالاسرائيليين، ويركزون على مناطق الضعف كالجيش العراقي المتفكك، والاخبث من كل ذلك يسعون لخطف من تطوع لمساعدة المحتاجين للمساعدة كالمسكين الن هننغ الذي ترك اسرته وعمله في بريطانيا ورحل الى سوريا لمساعدة المنكوبين تبرعا منه. كان ذبح هذا الرجل من اشنع ما يمكن ان نتصوره من السلوك الوحشي.

و من تطبيقات جبنهم محاولة ارهاب الآخرين بسلوكهم الوحشي في ذبح الرهائن البريئة والتفاخر بعرض ذلك على التلفزيون. بيد انني اضيف للجبن والوحشية صفة اخرى هي الجهل. لا اراهم يحسبون لمصيرهم الحساب الحتمي في آخر المطاف، وهو إبادة اتباعهم ومقتل الوف الابرياء من سكان المنطقة ونشر الخراب في كل مكان، بما فيه تدمير الآثار النتاريخية والفنية التي نعتز بها، واخيرا وقوعهم في قبضة العدالة. لآ اريد ان اشير الى دورهم في مسخ إسم الاسلام والمسلمين، فهذا آخر ما يفكرون به. رسالتهم للغربيين، احذروا من مد ايديكم لمساعدة شعوبنا. فنحن قوم نعض اليد الممتدة لمساعدتنا. فاتركونا وشأننا لنتمرغل في قاذوراتنا ونذبح بعضنا البعض ونعبث بثرواتنا فنبيع برميل النفط بعشرة دولارات لكل من يدفع، كما تفعل داعش. نقبض ذلك لنشتري منكم البنادق والقنابل بألوف الدولارات كما تطلبون لنستعملها في إبادة شعوبنا.

و اعود لما بدأت به من اسئلة. كيف ظهرت عصابة داعش وتبنت هذه الاساليب البربرية والاباحية واللااخلاقية التي لم يسبق ان شهدت مثلها شعوبنا؟ الجواب يكمن في الاوضاع المتفككة

والدموية، الغارقة بالفساد والعنف وانهيار بنية القضاء والنظام والقانون في ظل هذه الانظمة الجمهورية والانقلابية والديمقراطية الفاشلة. إذا كان بإمكان البعض ان يستعملوا الحزبية للقيام بأي شيء وبإسم اي شيء، بما فيه الدين، فلم لا نعمل نحن ايضا فننتظم لا بشكل احزاب بل بشكل عصابات تعمل بما يحلوا لها بإسم الدين والتراث. إذن فينبغي ان يصبح القضاء على داعش مقدمة لتنظيف المنطقة من هذا التسيب والفساد والظلم.

تحية لأهل بغداد

رغم كل الاضطرابات الطائفية الي شهدتها العاصمة العراقية قبل سنوات قليلة وبغض النظر عن كل التكهنات التى ساورت البعض في احتمال تجدد ذلك على نطاق واسع يشرف على حرب اهلية ويحول المدينة الى بحيرة من الدم، فأن الايام الاخيرة بددت كل ذلك واظهرت جوهر المجتمع البغدادي القائم اساسا على الروح العلمانية والتسامح البعيدعن التشدد الديني.

حاول داعش زعزعة هذه المشاعر مؤخرا بالزحف من تجمعاته في الانبار وحتى ناحية اليوسفية التي تعتبر ضاحية من ضواحي المدينة. من الواضح ان الفكرة من وراء هذا الزحف والتحرش بالضواحي لم يكن يقصد احتلال العاصمة. فهذا غرض يخرج عن كل طاقات الدواعش. يظهر انهم خطر لهم ان اقترابهم من المدينة وربما احتلال بعض ضواحيها سيكون كافيا لتشجيع السنة وحملهم على الانتقاض على الحكومة المركزية والهبوب بثورة داخل بغداد من جانب الكرخ، مرضع صدام حسين والفئات القومية من السنة، للانضمام الى مقاتلي داعش في اليوسفية، على مسافة لا تزيد على العشرة اميال.

تأملت في هذا الخطر وقلت لنفسي يا اعوذ بالله من هذا الكابوس. فهذا ما يوقع المدينة في لجة من الخراب والدمار والاقتتال الطائفي مما لم تشهده المدينة حتى في عصر هولاكو. من اوحى لي بهذا الكابوس، سألت نفسي. واجابت نفسي على نفسي وقالت، لم لا؟ فداعش مولع ومستعد للإستئناس بالمذابح ولا يحلو له العيش بدون نشر الدمار والموت الرخيص ونهب الحلال وتحليل الحرام وتحريم الأمن والسلام حيثما وجد لذلك سبيلا.

بيد ان ذلك الكابوس لم يحدث وتصدى الشهام لدفع افوله من العابثين والمضللين بعيدا عن العاصمة، خائبا في مسعاه. ويظهر ان ما فعله في الموصل كان كافيا لتحذير بغداد من سوء فعله. لم يستجب احد لمخططاته واحلامه. واظهر البغداديون عمق وعيهم وحسن تفكيرهم واصالة عقلانيتهم وسلامة مداركهم.

إذا كان لداعش اي جانب يستحق حسن التقدير والشكر على إساآتهم ومجازرهم فهو ما انجزوه في العراق من لملمة مشاعر الوحدة الوطنية التي اخذت تتآكل وتتفتت في السنوات الاخيرة. بيد ان بشاعة سلوكه ومخاطر افعاله وبربرية خلقه عززت مشاعر الوحدة والتآخي والصمود في نفوس العراقيين من سنة وشيعة، وتورك وكورد وايزيديين وشبك وسواهم من مكونات الشعب العراقي. وقد آن

الاوان لننسى ما فعله المغول والاشارة لهولاكو لنأخذ بديلا عنه من داعش والدواعش. وانني على ثقة بأننا سنسمع عن قريب من يخيف اطفاله ويؤدبهم فيقول: " تسكت وتصير عاقل والا اجيب عليك داعش!" وتشكو المرأة لأهلها عن سوء سلوك زوجها فتصفه وتقول " " ظلم داعش!"

الجنس والارهاب الاسلاموي

الغريب ان معظم الباحثين في امر داعش والارهاب لم يلتفتوا الى عامل الجنس والكبت الجنسي في هذا الموضوع. إن من المسلم به ان شبابنا يعانون معاناة شديدة من هذا الحرمان، ولاسيما بعد ان اصبح الزواج مشكلة ومكلفا بين فئات الطبقة المتوسطة التي نبع منها الارهاب. ساهمت وسائل الاعلام والقنوات الفضائية وشبكات الاتصال الاجتماعي في تعميق الهوس بالجنس والحرمان من الجنس. لقد اصبحنا نرى في هذه الايام عبر هذه القتوات الفتيات الاوربيات العاريات الفاتنات في شتى الاوضاع المغرية والالوان الساحرة وايضا ممارساتهن الجنسية المثيرة والاباحية. يتحرق الفتى العربي والمسلم لمثل ذلك ويتألم لحرمانه منها، الفاكهة التي تصلها يده. تخلق هذه المشاعر في نفوس البعض حسدا وحقدا ودافعا لضرب ما لا سبيل للوصول اليه. اعتقد ان هذه المشاعر من اسباب توجه الارهاب الوحشي ضد الغرب. ربما يصيغونه بصيغة رسالة لتخليص العالم من الاباحية والتبرج. ربما يتخوفون من انتقال هذه الاباحية لديارهم الاسلامية. ولم لا؟ فهم يرون كيف ان النساء المترفات بيننا اخذن يبدين من التبرج ما نراه ومن الاباحية ما نسمع عنه.

يشير البعض لتدفق الكثير من الفتيان والفتيات من الغرب الى داعش والمنظمات الارهابية ويقولون هؤلاء الشبيبة يعيشون في الغرب وهذا ما ينسف ما قلته اعلاه. الحقيقة ان وجود الانسان في الغرب لا يضمن نجاته من بوتقة الكبت. يجد الكثير من الشباب المسلم، وخاصة الفتيات المسلمات، صعوبات كبيرة في الاندماج بمجتمع الحرية الجنسية المحيط بهم في الغرب. بعض البنات المسلمات تعرضن في اوربا للذبح من قبل عوائلهن لمجرد الوقوع في هوى شاب، وشاب مسلم. ربما نجد ان وجود الشباب المسلمين في الغرب يزيد في الواقع من حدة شعور بعضهم، وبصورةخاصة بعضهن، بالحرمان والكبت، وحولهم كل معالم هذه الحياة الحرة لسواهم من المواطنين. وهكذا واجهت الشرطة البريطانية مشقة في منع صبايا مسلمات مراهقات في سن الخامسة عشر من الهروب من عوائلهن والالتحاق بداعش.

دور العامل الجنسي في الحركات الارهابية الاسلاموية موضوع يتطلب دراسة ميدانية مستفيضة، بيد انني لاحظت بالفعل نماذج من هذا الدور في وثائق بعض الضالعين فيه.

من الواضح ان قادة داعش قد فطنوا الى هذه الاعتبارات واستغلوها لصالح حركتهم واجتذاب المئات من الشبيبة اليها بتبني ما يشبه الحياة الاباحية للمنتمين. جرى ذلك بتبريرات دينية وتقليدية

بإعتبار كل النساء غير المسلمات اللواتي يقعن في ايديهم سبايا جاهزة للمتعة الجنسية وللبيع في سوق النخاسة بأبخس الاسعار ليصبحن عبدات جنس sex slaves. وقعت بذلك بصورة خاصة النساء اليزيديات من منطقة سنجار، شمالي العراق، مما اثار استياء عالميا. والمعروف ان نساء شمال العراق وسوريا يتميزن بجمال خاص.

و بالنسبة للفتيات المسلمات عمدت داعش لنوع من الزواج الصوري الآني بكلمتين، إنه " نكاح الجهاد" الذي يقتضي على المجاهدة ان تبيح جسمها للمجاهد الذي سيجود بحياته من اجل الاسلام ويستشهد. إنها صيغة من " الزواج" شبيهة بزواج المتعة في المذهب الجعفري، ولكن بدون التزامات وتبعات زواج المتعة. وبهذه الصيغة تمارس المتطوعة الجنس على راحتها مطمئنة لمرضاة الله عز وجل فلا يؤنبها ظميرها او يقلقها مصيرها. واسبغ كل ذلك على الحياة في معسكرات داعش صفة الاباحية الحقيقية التي تمخضت عن الكثير من المآسي بما فيها الاصابة بالامراض الجنسية كالايدز، كما ورد في وسائل الاعلام.

ولاشك ان هذا الجانب من الارهاب الاسلاموي سيتضمن صعوبات كأداء لا ادري كيف سيمكن معالجتها سعيا للتخلص من هذا الداء الذي اصاب جسم العالم الاسلامي في جيلنا هذا.

الطريق المسدود للاسلام السياسي

قدمت مؤسسة الحوار الانساني في لندن، وهي المؤسسة التي اقامها سماحة السيد حسين الصدر في لندن لهذا الغرض ويديرها الزميل غانم جواد، ندوة جديرة بشأن الاوضاع الطائفية والسياسية في العراق. شارك في هذه الندوة سماحة السيد جواد الخوئي، الاستاذ في الحوزة الدينية في النجف الاشرف والاعلامية العراقية السيدة جينا العمو والدكتور سعد سلوم من بغداد.

اثارت طروحات السيد الخوئي اهتمام الحاضرين وجرت مناقشتها بإمعان من قبلهم، لاسيما وانه كان يتكلم بلسان الحوزة والمرجعيات الدينية النجفية. كان من اهم ما طرحه هو ان الرأي هناك قد استقر على رفض الاسلام السياسي. قال ان تجربة هذا المنطلق اثبتت فشلها في العراق كما فشلت في مصر. فالعشر سنوات التي مر بها العراق اظهرت ضرورة فصل الدين عن الدولة واستبعاد تدخل الجهات الدينية في امور البلاد السياسية وعجز الاسلام السياسي في حل مشاكل البلاد.

عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم. فما فعلته داعش في العراق هو ان ايقضت مشاعر العراقيين بالوحدة الوطنية واخطار المنظمات والاحزاب الاسلاموية، مثلما كشفت لهم تجارب العشر سنوات الماضية خطل الطائفية واخطارها. الواقع انها هي التي فجّرت كل هذه المشاكل التي زعزعت مستقبل العراق وعروبته ومكانته كجزء متمم للعالم العربي. ولهذا اقترح احد الحاضرين حذف ذكر الاسلام في مقدمة الدستور. فهذا الذكر ينطوي على تهميش ابناء الاقليات، او بالاحرى المكونات الدينية غير الاسلامية.

وهذه نقطة تعرضت لها الندوة. مجرد ذكر اصطلاح " الاقليات" ينطوي على تهميشها والتعويل على دور الاكثرية فقط. ينبغي وصفها بالمكونات لا بالاقليات، لأنها هي التي تساهم في تكوين المجتمع. وهنا اكّد الاستاذ الخوئي على ضرورة صيانة هذه المكونات لأنها تعطي المجتمع العراقي التنوع الذي تميز به واستفاد منه واقام عليه حضارته.

وهذه نقطة طالما اشرت اليها من قبل. فأبناء هذه المكونات يسعون دائما للتعلم والتميز والتخصص في شتى الميادين، ومنها مثلا اتقان اللغات الاجنبية واحتراف الصيرفة والحسابات والطبابة والترجمة والصيدلة والفنون كالموسيقى، والحرف الفولكلورية كالصياغة والخياطة والتطريز والنقش. الحضارة العربية والاسلامية قامت على اكتاف ابناء هذه المكونات، وفي مقدمتهم المسيحيون واليهود والصابئة.

لقد فات علي الكثير مما طرحه المتحدثون والمشاركون في الندوة. فالواقع انني ابتليت بهذه العاهة، وهي فقدان حاسة السمع. قلت للحاضرين إنني الاحظ ابتلائي بهذه العاهة بصورة خاصة عندما يتكلم العراقيون في الشؤون العامة. لا اسمع ما يقولون. واعتقد ان هذه العاهة التي ابتليت بها منذ سنوات تعود لاسباب نفسية. وهو امر يعيا الاطباء عن معالجته. والسبب النفسي كما اشعر يعود، لاعتقادي بأن العراقيين يقولون ما لا يفعلون. فما الفائدة من الإصغاء وارهاق اذني لسماع ما يقولون؟

لاحظت مثلا أن الندوة اكدت على اعتقاد الحوزة بإبعاد الدين عن السياسة. إذن فلم كل هذه التدخلات والطروحات التي مازالت تصدر من جانبها او تنسب اليها؟

هل الاحزاب الاسلامية اسلامية؟

ارتبك العالم من انباء فوز الاسلاميين في الحكم في كثير من الدول العربية، وعلى رأسها مصر. حتى الاسرائيليين اختضوا فوسعوا الميزانية العسكرية. وبالطبع شعر العلمانيون والديمقراطيون بخيبة وهلع. كتبت في الشرق الاوسط فقلت لا داعي لهذا القلق مطلقا. فهذه الاحزاب لن تجرؤ على تنفيذ برامجها ووعودها وادعائها بأن الاسلام هو الحل. نعم سيقومون ببعض الرموز الزخرفية الاسلامية فيشجعون لبس الحجاب والنقاب وإطالة اللحى ولبس الدشداشة الى دون الركبتين ونحو ذلك. ولكنهم لن يحاولوا فرض اي منها. لم تمض غير ايام قليلة حتى تحققت نبوئتي. اعلن زعماؤها في تونس ومصر عن برامجهم فإذا بها لا تزيد عن اي برامج اصلاحية شعبوية لبرالية، مكافحة الفساد، القضاء على البطالة، توطيد الأمن والاستقرار، بناء الاقتصاد الوطني، الترفيه عن الجميع ونحو ذلك. ليس فيها اي شيء من تطبيق الشريعة او المتطلبات الاسلامية سوى الاطار العام الذي تتبناه سائر الاديان بل واللاديان. كالقضاء على الفقر ومساعدة الضعفاء وتوفير الغذاء والدواء والكساء.

الجدير بالملاحظة ان زعماء الاخوان في مصر، وقد آل الحكم بأيديهم، سارعوا الى دراسة النجاح الاقتصادي والحضاري الذي تفتقت عنه دول النمور في الشرق الاقصى وبعثوا برجالهم الى تلك المنطقة للتعلم منها ومن تجاربها. لم يذهبوا لدراسة الوضع في الدول التي التزمت بالشريعة كالسعودية وايران والتعلم من تجاربها، وانما ذهبوا الى دول علمانية ولادينية.

ايه ايها الكرسي! أي سحر توقع به كبار رجال السياسة والفكر والدين حالما يجلسون عليك ويحكمون! حتى زعماء حزب النور السلفي وقد فاجؤا مصر والعالم بما فازوا به من مقاعد في المجلس سارعوا الى التبرء من برنامجهم، تطبيق الشريعة، وبادروا الى تكميم افواه السادة الملالي الذين متعونا واضحكونا بفتاواهم اللذيذة، كعزمهم على تغطية التماثيل الفرعونية العارية بالشمع لئلا يرى الناس فروجها وادبارها واعضائها فتفسد اخلاقهم. تراجعوا طبعا عن قولهم بأن الديمقراطية والانتخابات تتنافى مع الاسلام.

كان اول شيء فعلته الاحزاب الاسلامية هو ان حذفوا ذكر الاسلام والمسلمين من اسم حزبهم. استبدلوها باسماء جذابة كالنهضة والعدالة والحرية ونحو ذلك. ثم فتحوا العضوية لغير المسلمين. واخذوا الآن يتحاشون أي ذكر للشريعة. حتى حمادي الجبالي في تونس اعتذر عن ذكره لكلمة القيم الاسلامية. قال ما كان يقصد منها تطبيق الديمقراطية والشفافية التي عرفت عن الخلفاء الراشدين.

وبالطبع صرحوا علنا في مصر بالتزامهم باتفاقيات كامب ديفد والسلام مع اسرائيل. وانهار بذلك ركن آخر من اركان منهج الاسلاميين.

كمفكرعلماني لا يعنيني من السياسة غير اغاثة الفقراء والمحرومين، اقول هيا بنا نرحب بهم طالما كان برنامجهم محصورا في هذا الاطار ولا يخدعوننا هنا ايضا بالادعاء بما لا يفعلون فيتراجعون وبشرعون بالضغط على حرياتنا ويمنعوننا من التفكير والتعبير عن افكارنا. قمع الحريات هو الشيء الذي يجتمع عليه ويتمسك به كل الاسلاميين. لقد فشل القوميون والاشتراكيون والماركسيون والديمقراطيون في تحقيق الاصلاح الاجتماعي المنشود فلنرى ما سينجزه الاسلاميون. إن نجحوا فبارك الله فيهم وإن فشلوا فخير على خير كذلك. فلن نسمع بدعواهم بعد اليوم وسيكتشف الناخبون سوء ما فعلوا في التصويت لهم ولشعارهم بأن الاسلام هو الحل.

يتعلمون الحجامة برؤس اليتامى

من مصائب الانظمة الثورية ان الحكم فيها يتولاه من لا خبرة او معرفة له بالحكم. كان هذا من اسباب فشل النظام السوفيتي. فلنين وستالين وخروشجوف واكثرهم قضوا حياتهم في النضال والتشرد والعمل السري وحفظ النصوص الماركسية. لم يقم اي منهم بوظيفة يتعلم منها فنون الحكم والادارة ولا درسوا هذه المواضيع في جامعة. راحوا يتخبطون بالاخطاء. لقد اصبح الحكم والادارة موضوعا معقدا جدا يتطلب معرفة وخبرة واسعة في السياسة والاقتصاد والعلوم وسياسات الدول والاقتصاد العالمي، ولاسيما في عصر العولمة هذا. معظم زعماء الدول الغربية تحلوا بهذه المعرفة وتدرجوا في تحمل مسؤوليات الدولة.

ما يحصل في الانظمة الثورية هو ان قادة الثورة يقضون حياتهم في السجون والعمل السري ولا يقومون بأي عمل او وظيفة تعطيهم فكرة عملية عن ادارة الدولة. يعيشون غالبا عالة على اهلهم او حزبهم. كثيرا ما تنحصر قرآتهم في النصوص الثورية والمثاليات (والفقه والشريعة بالنسبة للاسلاميين). حالما تنتصر الثورة يعتبرون انفسهم اهلا للحكم ويعترف الشعب بحقهم فيه. يبادرون فورا بتطهير الحكومة من كل رجال العهد الماضي الذين اكتسبوا المعرفة والخبرة في الحكم. استمعت لمحاضرراح يندد بسياسة الحكومة العراقية. قاطعه احد المستمعين: اعطهم الفرصة يا سيدي ليتعلموا. تمتم مستمع آخر: يعني يتعلمون الحجامة برؤس اليتامى!

معظم وزراء الحكومة التونسية الآن قضوا حياتهم في السجون. رئيسهم الجبالي قضى 16 سنة في السجن منها عشر سنوات في سجن انفرادي حرمه من الاطلاع او دراسة اي شيء. لم يقم بأي وظيفة في حياته وانحصرت دراسته الجامعية في التكنولوجيا. بالطبع، اتمنى لحكومته كل التوفيق. المشكلة التي تواجهه هي البطالة، وخاصة بطالة الخريجين. اعلن عن نيته بالاقتراض من المصادر العربية لخلق فرص عمل للعاطلين. هذا ما فعله الاشتراكيون في اوربا، ولاسيما اليونان. ادى في الاخير الى افلاس هذه الحكومات عندما استحق التسديد. استقالت الجكومة الاشتراكية وسلمت الحكم لمن سيتحمل مسؤولية التقشف. يخيل لي ان هذا ما سيحصل في تونس ايضا. كيف ستسدد القرض؟ هل ستكون الاعمال الجديدة مجدية ومربحة فعلا وتدر للدولة ما تسدد به الدين؟ اشك في ذلك. فلو كانت مجدية لقام بها الرأسمال الخاص. اذا عجزت تونس عن التسديد فسيكون لذلك اثر سيئ جدا على المدى البعيد فتمتنع المصادر العربية عن توظيف اموالها خارج البنوك الغربية.

ابدت الدول الغربية استعدادا مدهشا لمساعدة حكومات الربيع العربي الاسلامية. سيقدم لها صندوق النقد الدولي 35 مليار دولار وتقدم مجموعة الدول الثمان 38 مليار. وهي مساعدة مدهشة لأنها تأتي من قوم يصفهم السلفيون بالكفار والصليبيين واعداء الاسلام، يقدمونها للاسلاميين الذين كانوا حتى الايام الاخيرة لا ينفكون من شتمهم والتنديد بهم. لا بأس. ولكن هذا هو الامتحان الذي سيواجهه الاسلاميون. ارجو مخلصا في دعائي ان يحسنوا استعمال هذه الاموال بما يخفف عن المستضعفين ضيمهم ويعطيهم تنمية مستديمة فلا يتركون ديونا ثقيلة ترهق كاهل من سيليهم في الحكم، اذا سمحوا لأي احد ان يأخذ الحكم منهم!

الماء والشريعة

القى الدكتور كاظم جواد شبر محاضرة في بيت السلام(مؤسسة الحوار الانساني في لندن) بمناسبة نشر ترجمته لكتاب " اقتصادنا"، للعلامة الشهيد محمد باقر الصدر رحمه الله. يتناول هذا الكتاب السميك والموسوعي نظرة الكاتب للاقتصاد الماركسي ثم ينتقل الى الاقتصاد اللبرالي ويطرح اخيرا فكرته عن الاقتصاد الاسلامي. وقد عقد في ايران مؤخرا مؤتمر عن هذا الكتاب حضره الدكتور شبر.

يؤكد الباحث العلامة في كتابه على ضرورة احترام مجرى الماء وعدم التعرض لتدفق المياه كما ورد في السنة النبوية. وهو موضوع يشكل جزء كبيرا من الكتاب. لم اكن بين من حضروا ذلك المؤتمر في قم. ولكنني افترض انهم تعرضوا لهذه الأمر، وهو موضوع يهم ايران وعلاقاتها بالعراق. فالمعروف ان كثيرا من المزارع العراقية المتاخمة لحدود ايران تعتمد على مياه الانهر المتدفقة من جبال زاغروس في ايران. وغالبا ما استخدمت طهران هذه الواقعة في الضغط على الحكومات العراقية المتعاقبة، خلافا للمواثيق الدولية التي تتضمن في الواقع ما جاء في السنة النبوية من احترام تدفق مياه الانهر المشتركة. ولكن هذا الموضوع ظل من المشاكل الدبلوماسية المستمرة بين البلدين. وطاما قرأت في الصحف العراقية برقيات الاستنجاد الواردة من المزارعين العراقيين، في قطاع مندلي وجلولاء مثلا، وهم يهيبون بالحكومة التوسط مع ايران لانقاذ بساتينهم ومزارعهم من الموت جفافا.

قلما يدرك البعض ان من اسباب غزو صدام حسين لايران (حرب الخليج الاولى) كانت هذه المعضلة. وجعل الجيش العراقي من اولوياته في الهجوم نسف كل السدود التي كانت تتحكم بتدفق المياه من جبال زاغروس الى العراق.

و لربما كان هذا الموضوع هو ما حفز العلامة محمد باقر الصدر الى تخصيص هذا الحيز الكبير من " اقتصادنا" لهذا الأمر. والمفروض عمليا ان النظام الايراني الحالي الذي احتفل بهذا الكتاب ويدعي بفكرة الاقتصاد الاسلامي ان يلتفت لهذه النقطة ويراعي حقوق الماء كما اوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن الانباء التي وردت من العراق قبل ايام تضمنت تظاهرات فلاحية قام بها المزارعون العراقيون في قطاع جلولاء في مسيرة الى الحدود الايرانية ليتوسلوا بالايرانيين ان يفتحوا الماء قبل ان تهلك مزارعهم ومحاصيلهم. يخيل لي ان مشاهد مماثلة جرت على امتداد المزارع العراقية المتاخمة لايران.

علما بأن هذه التصرفات اللاقانونية ولا اسلامية جرت في هذه المرحلة التي تهيمن فيها ايران على العراق وضد فلاحين من الطائفة الشيعية. لم اسمع بعد ان السيد نوري الملكي قد اثار هذا الموضوع مع المسؤولين الايرانيين خلال زياراته المتكررة لطهران.

اما والحالة هذه، فقد عدت لمسائلة السيد المحاضرعن مشاهداته في ايران. سألته ما الذي طبقوه من الشريعة؟ قال اماموا البنوك ومنعوها من الربى. ولكن حاجة المواطنين للاقتراض ادت لظهور بنوك خاصة تتعامل بالربى بصور واساليب مختلفة. ولم يستطع الاستاذ المحاضر ان يذكر اي مثال آخر لتطبيق الشريعة هناك. بيد انني اتذكر انهم حاولوا رجم احدى الزانيات ولكنهم تراجعوا امام موجة الاحتجاج العالمي. لم يرغبوا بأضافة مشكلة جديدة الى مشاكلهم العديدة مع العالم.

الحليفة القديمة الجديدة لاسرائيل

بعد موجة التهديدات واحتمالات ضرب اسرائيل لايران خوفا من حصولها على اسلحة نووية وامتعاضها من تهديدات احمد نجاد ومساعدته لحزب الله في لبنان وحماس في غزة، بدأت ملامح تحول في السياسة الاسرائيلية تهون من خطر ايرن. فقد صرح الجنرال بيني غانتز، رئيس الاركان بأنه يشك في وجود اي نية في طهران للحصول على هذه الاسلحة. ايده في ذلك ايهود باراك، وزير الدفاع، في قوله ان ايران لم تقرر بعد حيازة اي اسلجة نووية. الحقيقة انني لاحظت صدور تعليقات من المصادر الاعلامية ايضا تبدد المخاوف من الخطر الايراني. كانت هناك مقالة في هارتز تقول ان هذه التهديدات الايرانية مرحلة عابرة. فهناك تحالف تاريخي بين اليهود والايرانيين. لابد ان يتذكر الاسرائيليون انهم ساعدوا كورش على فتح بابل وكافأهم بالسماح لهم بالعودة الى اورشليم واعادة بناء دولتهم. وكما نتذكر ان الشاه محمد رضا حافظ على علاقات طيبة مع تل ابيب.(انظر"التحالف الغادر بين ايران واسرئيل وامريكا" لتريتا بارسي)

ما السرفي هذا التحول الجديد في الموقف الاسرائيلي؟

طالما بقي العرب على معاداتهم لاسرائيل واملهم في ازالتها (وهي فكرة اخذ بعض الغربيين يؤمنون بها)، فإنها ستحرص على إبعاد هذا الخطر. هكذا اقامت استراتيجيتها على إضعاف العرب، تمزيق دولهم، تقسيمها، تشجيع القلاقل والمشاكل والحروب الداخلية وإشغالهم بها، واستنفاذ ثرواتهم. في حوار جرى لي في ايام صدام حسين مع خبيرة اسرائيلية متخصصة بشؤون العراق، قالت لي صراحة ان تقسيم العراق سيكون من مصلحة العراقيين. وإن من مصلحة اسرائيل نقل الحكم للشيعة لأنهم اقل حماسا من السنة لموضوع فلسطين. طبعا نجحوا الآن في كلا الهدفين. لا تبدي الحكومة العراقية الآن اي اهتمام بموضوع فلسطين واضطر سائر الفلسطينيين الى مغادرة العراق. وبالطبع حققت مخططاتها في السودان بتقسيم السودان الى شمال وجنوب. وستظل تسعى لتقسيم اي بلد عربي.

لابد ان لاحظ المسؤولون في تل ابيب ان ايران اصبحت آلة جيدة في خدمة هذه الاستراتيجية من حيث بث الانقسامات الطائفية وتغذيتها في الدول العربية، اثارة القلاقل والاضطرابات فيها، تشجيع شعار اقامة" جمهورية اسلامية"، استنزاف ثروات العرب في الانفاق على اجهزة الامن والاعلام والقوات المسلحة، زجها في حروب واضطرابات داخلية، وبالتالي تحويل تفكير العرب من موضوع

فلسطين الى مواضيع مشاكلهم الداخلية. هذا ما نجح حتى الآن. لقد اصبح موضوع فلسطين موضوعا ثانويا تماما قلما تعيره مصادر الاعلام العربية والعالمية اي اهتمام. انا الذي اعتبر نفسي خبيرا في الشأن الفلسطيني، اصبحت لا اعرف اي شيء عما يجري الآن في فلسطين او بشأن فلسطين. تكاد تصبح نسيا منسيا.

هذا هو سبب التحول في النظرة الاسرائيلية. اصبح النشاط الايراني والشيعي الصفوي المرتبط بإيران خير عتلة تخدم الماكنة الاسرائيلية وربماسيفتح لها ابوابا وجسورا لم تحلم بها في العالم العربي. ربما سيجد البعض ان اجراء مشاورات في تل ابيب افضل من اجراء مشاورات في قم!

وهذه كلمتي للسيد احمد نجاد. اطمئن يا سيدي ولا تقلق! اسرائيل معك.

ايام فاتت

ايام طوب ابو خزامة

للخرافات جمالها وروعتها. منها خرافة طوب ابو خزامة. من الاسباب المهمة لقوة الدولة العثمانية انها اغرت بالرواتب العالية مهندسي المدافع في اوربا على ترك بلادهم والمجيء الى اسطنبول وصنع اقوى المدافع للجيش العثماني، تفوقت على مدافع الاوربيين والفرس ونشرت الذعر في قلوب كل الاعداء، في وقت ضاهت فيه قنابل المدفعية القنابل الذرية في عصرنا هذا.

كان الفرس قد احتلوا بغداد واستباحوا اهلها السنة ونبشوا قبر الامام ابي حنيفة. ارسل السلطان جيشه لتطهيرها منهم. فجاؤا بمدافعهم العتيدة وعلى رأسها هذا المدفع الهائل الذي قارب طوله المترين. سماه العراقيون طوب ابو خزامة. القت قنابله الذعر في قلوب الايرانيين فلاذوا بالفرار من العراق.

شاعت بين اهل بغداد هذه العقيدة بأن هذا الطوب له مكانته الخاصة عند الله تعالى ويستمع رب العالمين لكلامه وطلباته. قالوا انه عندما نفذت ذخيرته اخذ يلتهم التراب من الارض ويضرب به الفرس. وحيثما وجدت حفرة في طرقات باب المعظم، وما اكثرها، قالوا هذه حفرة اخذ منها طوب ابو خزامة قنابله. ولربما منعوا البلدية من دفنها وتسويتها. ولهذا تجد الآن شوارع بغداد مليئة بالحفر والمطبات. لا احد يجرء على دفنها. فهي من صنع طوب ابو خزامة.

و عندما رجع الجيش العثماني من بغداد، التمس اهلها الاحتفاظ به للبركة والثواب وحماية بغداد من الفرس. كنت اراه امام وزارة الدفاع محاطا بسلسلة انيقة وكانت النسوة يشدون بها خرقا (شرائط من القماش) للدعاء وتلبية مطالبهن، العزباء التي تريد زوجا، العاقر التي تريد طفلا، الزوجة التي تريد استعادة زوجها من زوجته الثانية، الزوجة الثانية التي تريد من الطوب ان يموت ضرتها، الأم التي تريد الشفاء لابنها المسلول، وكلها مطالب مشروعة لم يتردد الطوب في تلبيتها كما سمعت.

شيعة بغداد يذهبون للكاظمية ويوسطون الامام الكاظم، وسنة بغداد يذهبون لطوب ابو خزامة ويكلمونه. وكانت الأم العراقية حالما تلد طفلا تأخذه للطوب وتضع رأسه في فوهته وتهيب بالطوب ان يجعله قويا شجاعا يرهب الاعداء مثله. ولربما نكتشف ان كل هؤلاء الضباط الذين تآمروا وقاموا بانقلابات عسكرية كانوا ممن وضعتهم امهم في فوهة طوب ابو خزامة. وهذه نقطة اتركها للسادة المؤرخين العرب ليتحققوا من امرها، بدلا من اضاعة وقتهم ووقتنا في بحث احقية خلافة ابي بكر او

الامام علي رضي الله عنهما.

بعد تنور العراقيين وبناء مستشفيات لمعالجة المسلولين، استغنت الحكومة عن خدمات طوب ابو خزامة فأمر نوري السعيد بإزالته من باب وزارة الدفاع. وكان قرارا طائشا منه لم يستشر به الانجليز. فما ان تم تنفيذ ذلك حتى وقعت بغداد بيد الفرس على نحو ما نرى اليوم.

الحيدري والتشيع

تاريخ الاسلام حافل بالانقسامات منذ اول انطلاقته. وكان المؤمل ان العصر الحديث، عصر العقلانية والعلمانية، سينجح في رتق هذه الانقسامات الطائفية ويبدد كل ما علق بها من خرافات واختلاقات وبدع ويجعل من المسلمين كتلة موحدة متنورة تقف في وجه كل هذه الاخطار التي تحيط بعالمنا. ولكن المؤسف ان ما حصل هو زيادة وتعميق لهذه الانقسامات. يأتي في مقدمتها المؤمنون بالارهاب والمؤمنون بالاعتدال. وحتى المؤمنين بالارهاب انقسموا على انفسهم، الحوثيون يقاتلون القاعدة والقاعدة تسفه داعش وداعش يتحدى النصرة، ولا ادري ماذا بعد!

و الآن خرج علينا هذا الكاتب الاكاديمي الذي كرس حياته لدراسة التشيع بكتاب موسوعي جديد يقرب من 600 صفحة بالقطع الكبير يقسم فيه الشيعة ايضا الى معسكرين، الشيعة الصفويون الفرس والشيعة العروبيون العرب. نبيل الحيدري مواطن عراقي شيعي شغله التاريخ الاسلامي والشريعة فرحل الى قم لدراسة ذلك. ولكنه هناك لاحظ هذا التحامل العنصري على العرب والتشهير خصيصا بعمر بن الخطاب بشكل سوقي وسخ لاحظه في المواكب الحسينية وتقزز منه. ففي العراق اعتدنا على الاعتزاز بالخلفاء الراشدين الاربع وبما قام به الخليفة الثاني. لم يستطع الحيدري ان يتحمل ما رآه فترك قم وعاد لبغداد ورحل منها الى لندن حيث اكمل دراسته لتاريخ الاسلام. وقد كرس وقتا طويلا لتعقب هذا النزاع وهذا التحامل الصفوي على العرب والسنة. انتهى به المطاف بهذا الكتاب الموسوعي الضخم الذي نشرته له دار الحكمة بلندن.

" التشيع العربي والتشيع الفارسي" دراسة تعتمد على مصادر اساسية تنيف على1255 كتابا. يتعقب المؤلف اسرار هذا النزاع وحلقاته، ابتداء من اسى العراقيين وندمهم على مقتل الحسين والانطلاق للالتفاف حول آل البيت. بيد ان منحاهم هذا تحول على يد الفرس القوميين الى حرب عقائدية ضد العرب الذين فتحوا ايران وقوضوا عروش ملوكها. وطبعا جرى كل ذلك في زمن الخليفة عمر بن الخطاب واوامره. فأصبح الهدف للطعن.

رغم ان البويهيين الفرس الذين مسكوا برقبة بني العباس عند انحلال الحكم العباسي قد وضعوا بذور الحملة، ويستشهد المؤلف هنا بما صدر في عهدهم من الكتب المغالية ضد السنة والخلفاء، فإنه يرى ان الحملة الشوفينية قد شنت حربها في عهد اسماعيل الصفوي عام 1501 الذي فرض التشيع على ايران السنية بالسيف والارهاب.

كواحد من المؤمنين بالجيو بولتكس، السياسة الجغرافية، آمنت بأن السيطرة على البحر المتوسط وراء جل ما دار في عالمنا من منازعات. وجدت ظالتي هنا في اشارة الحيدري للاتصالات التي جرت بين الصفويين المسلمين والبرتغاليين النصارى للتعاون في ضرب مسلمين آخرين، العثمانيين! العركة على الكعكة، شواطيء البحر المتوسط. والدين على الرف! تمسك آل عثمان بالسنة الحنفية كقاعدة فكرية في الحرب ضد الصفويين الذين اتخذوا من التشيع البويهي قاعدة فكرية مضادة في تعبئة الجيوش لمحاربة العثمانيين الذين سدوا في وجههم الطريق للبحر المتوسط.

هذا وغير ذا من النفائس العديدة الجديرة بالملاحظة والدرس يوردها الحيدري في هذا الكتاب القيم.

تاريخنا وتراثنا في خطر

الأمة التي لا تعتز بماضيها لا تعبأ بمستقبلها

عالمنا حاشد بالتناقضات. الايرانيون شعب يتمسك بالدين ونظامهم الحالي ملتزم بتطبيق الشريعة الاسلامية كما يرونها. من جائهم بالاسلام؟ عمر بن الخطاب. ولكنهم لا ينفكون عن شتمه والاعتزاز بمقتله والاشادة بقاتله! إننا هنا امام تغليب القومية على الدين. فعمر بن الخطاب هوالذي قوض عروش كسرى. كإننا بهم والحالة هذه يتمنون لو انهم مازالوا في حكم الاكاسرة والاعتقاد بالزراد شتية. بيد ان الفرس كانوا من اكثر المتعصبين للمذهب الحنفي والاعتزاز بالخلفاء حتى ارغمهم اسماعيل الصفوي عام 1501 على التشيع بحد السيف. وكان ذلك جزء من المد القومي والتوسع الامبراطوري على حساب العقيدة. هذا الانقلاب امر يخصهم، بيد ان تسرب هذه الصيغة الصفوية الفاشية الى العالم العربي بما تحمله من عداء للفتوحات العربية ومنجزات الخلفاء فيه تجن خطير بالنسبة لنا.

عالمنا العربي حاضرا عالم حالك ممزق وبائس. فيه الكثير مما نخجل منه والقليل مما نتباهى به. نجد سلوانا الوحيدة في تراثنا والاعتزاز بتاريخنا. يدرس اولادنا وبناتنا في المدارس تاريخنا العربي، كيف فتح خالد بن الوليد العراق وانتصر على الروم في اليرموك، كيف فتح طارق بن زياد بلاد الاندلس وما خلفه العرب من حضارة يعترف بأفضالها الغربيون. يفرح اولادنا بكل ذلك ويعتزون به، بعروبتهم وتاريخهم وبطولات قادتهم.

هذا الايمان بمنجزات الماضي، بالاضافة لثروتنا النفطية، هو الذي يصوننا من اليأس المطبق والاكتئاب المميت والشعور بالخزي واحتقار النفس. بيد ان النظرة الصفوية الفارسية تؤدي في الواقع الى نسف حتى هذه البقية الباقية من هذا الاعتداد بالنفس. فهي تقوم اساسا على نسف تلك المنجزات بل وتكفير اصحابها. فمن فتح العراق والشام ومصر غير الخلفاء الراشدين، من فتح الاندلس وحمل راية الاسلام الى بلاد الهند والسند واعماق الصين غير الامويين، وبأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي؟ وهذه الحضارة المذهلة في الاندلس، من اقامها غير بني امية؟ وكل هؤلاء العلماء والشعراء والفلاسفة الذين نعتز بهم وتعلم الغربيون منهم، ابن خلدون، وابن رشد والغزالي والمعري والمتنبي... الخ. ليس بينهم من شككك بالخلفاء وشرعية حكمهم، ليس بينهم من لطم على صدره لمقتل الحسين او حتى جاء لذكره. ليس بينهم من لم يعتز بعدالة عمر واحكامه.

بيد ان الصفوية الفارسية تقضي علينا بشطبهم من دفاترنا. لا علم لي بما يتعلمه الطلاب الايرانيون الآن من هذا التاريخ الاسلامي في مدارسهم وكيف يصوغونه لهم.

التشيع الصفوي ديناميت ينسف كل تاريخنا وحضارتنا ومنجزات اجدادنا. وعندما انظر في هذه الايام لمواكب مسيرات السبايات المليونية في العراق وما يجري فيها من اللطم والنحيب والبكاء، اراها لا تجري على مقتل الحسين فقط، بل ولا على الحاضر المأساوي للمشاركين فيها، كما يرى بعض اهل السياسة، ارى فيها لطما وبكاء على مقتل التاريخ العربي وتراث بلاد الرافدين والحضارة الاسلامية. فكل ذلك التاريخ يتقلص في ايديولوجية وممارسات التشيع الصفوي وينحصر في اطار آل البيت ولا شيء سواه. كل من يخرج عن هذا الاطار ولا ينتسب اليه مرفوض.

علمانية العراقيين

قد يستغرب البعض ان اصف العراقيين بالعلمانية وهم على ما يعيشونه اليوم من سلوك وما استسلموا له من مرجعيات واحزاب دينية. ولكن هذه مرحلة عابرة اكثر اتصالا بالسياسة منها بالايمان. الحقيقة ان جل هذه المنازعات الدينية والطائفية الجارية في العراق في هذه السنوات تنطلق من منطلقات علمانية لا دينية، مادية لا روحية كلها تدور حول العركة على الكعكة.

التفكير العلماني مغروس في تربة وادي الرافدين منذ سكنها الانسان. نستطيع تحسس ذلك من مقارنة سلوك العراقيين القدماء بسلوك المصريين القدماء. كلا الشعبين سعيا للخلود. الفراعنة تصوروا انهم وصلوا اليه فكرسوا جهودهم لبناء المقابر الزاهية وابتداع التحنيط. العراقيون ادركوا، كما في ملحمة غلغامش، استحالة خلود الانسان فكرسوا جهودهم ووقتهم لبناء القصور والجنائن المعلقة وصنع الخمور وممارسة الرهبنة الجنسية (الزنى) في المعابد واختراع العجلة. تمتعوا فليس لكم غير هذه الحياة. نجد في ملحمة غلغامش تحديا فضيعا وصريحا للآلهة. وهذا من اسرار ملانخولية العراقيين وتشاؤمهم وحدة مزاجهم.

في عهد الاسلام ظهرت اجتهادات ابي حنيفة وحركة المعتزلة في بغداد والقرامطة في الجنوب وكلها تميل الى العقلانية وتجنح للعلمانية الدينية.

نلمس في جيلنا هذا مظاهر تؤكد على هذا المنحى. منها التميز بالاستعداد لتقبل الفكر الماركسي والالتفاف حول الحزب الشيوعي. يقال إن غريزة الفضولية من مؤشرات الروح العلمية، روح التساؤل، التي التفت اليها الجاحظ ولاحظها في نفسية العراقيين. هناك رغبة جامحة في نفس العراقي نحو المعرفة حتى شاع القول: " المصريون يكتبون واللبنانيون ينشرون والعراقيون يقرأون". ومن المعروف في اسواق النشر ان الناشرين يترددون في نشر اي كتاب حتى يتحققون من دخوله اسواق العراق. هناك الآن عدة مراكز ثقافية عربية في لندن. حاول " نادي حديث الأمة " توسيع جمهوره فقلت لهم عليكم بالعراقيين. ويظهر انهم اخذوا بنصيحتي فأصبح النادي يغص بالعراقيين لاستماع ما يقدم فيه من محاضرات والمشاركة في مناقشاتها.

في معظم البلدان العربية، نجد للسحر والسحرة حيزا واسعا في حياة النساء والناس عموما. ولكنني لم اعرف اي امرأة من اسرتنا الكبيرة واسر اصدقائي ذهبت لساحر او التجأت للسحر. ولم اسمع عن اي رجل يمتهن مهنة السحر في بغداد. هناك ملالي يقرأون على رؤوس الاطفال والمرضى

ويعطونهم ادعية ولكن هذا اقرب للايمان الديني والمعالجة النفسية منه للايمان بالسحر.

في زياراتي للآثار المصرية، كثيرا ما وجدت وجوه التماثيل والصور المجسمة واعضائها الجنسية قد ازيلت او شخبطوا عليها. تسائلت فقالوا هذا ما فعله بعض الاسلاميين الذين اعتقدوا بتحريم تصوير الانسان والحيوان. رأيت شيئا مشابها في مدينة الحضر في العراق. سألت لماذا دمروا وجوه هذه التماثيل؟ الجواب، انهم سكان المنطقة كانوا يأتون هنا ببنادقهم ويتعلمون الرمي بالتهديف على وجوه التماثيل! استعمالان وذهنيتان تمثلان تماما اختلاف المزاج والعقلية بين ابن الرافدين وابن النيل.

نجد انعكاسات من ذلك في الاستعمالات اللغوية. فاللسان انسان، كما يقال. فنحن جميعا نتذكر ان العربان في الجنوب عندما رأوا الدراجة سموها " حصان حديد". لاحظت في السعودية انهم عندما رأوا الدراجة سموها "حصان الشيطان". الاستعمال اللغوي الاول يقوم على فهم علمي لطبيعة الدراجة وتركيبها من معدن الحديد. الاستعمال الثاني ينم عن ذهنية ميثالوجية تنحو نحو الخرافة. ولا شك اننا جميعا نتذكر تلك الهوسة التي انطلقت من عربان المنتفق عندما شاهدوا طائرة بريطانية تحلق فوق رؤسهم فتذكروا ما جاء في القرآن الكريم، انظر للأبل كيف خلقت، وانطلقوا يهوسون:

"متعجب خالق له بعيرة!"

نجد الكثير من انعكاسات النفسية العلمانية، بل واللادينية، في استعمالاتنا اللغوية الكفرانية عندما نريد ان نعبر عن شدة اعجابنا او فرحنا او حزننا، مما لا يليق بالنشر.

لاحظت خلال اختلاطي بشتى المسلمين في لندن، أنهم يرفضون اكل لحم الخنزير حتى عندما يكونون ملحدين ولا يقومون بأي شيء من شعائر الاسلام. يقولون:" نفسي ما تقبلوش." ولكنني لاحظت الكثير من العراقيين لا يترددون في اكله.

المساهمات العربية والاسلامية في الحضارة المعاصرة

كثيرا ما تضج الصحف الغربية بأي هفوة يرتكبها عربي او احد من المسلمين. فنجدهم مثلا ينشرون بالحروف الكبيرة " نشال عربي يسرق محفظة امرأة عجوز". ولكنني لم ارهم يقولون شيئا عندما توصل طبيب عربي في اكسفورد لفتح جديد في معالجة السرطان. لتصحيح هذا الاختلال في الميزان، فاتحتني منظمة عربية قبل سنوات لكتابة كتاب يكشف النقاب عما ساهم به مغتربون عرب في صرح الحضارة البريطانية المعاصرة. تحمست للموضوع الذي قبر فورا لضيق الموارد مع الاسف.

يعترف الغربيون بمساهماتنا في القرون الوسطى. ثم ينتهي الموضوع. لا احد يشير لما قدمناه لهم الآن. وكله رغم ان اي جامعة غربية لا يشمل ملاكها الآن نفرا من كبار العلماء والمفكرين العرب والمسلمين. اما في ميدان الطب فحدث ولا حرج. قيل لو ان العراق فقط سحب كل اطبائه من بريطانيا لانهار مشروع الصحة القومي البريطاني كليا. ولكن المواطن العربي كالسمك، مأكول ومذموم. تماما مثل كل ما يأخذونه من ثرواتنا.

لم يجد العراق بالاطباء فقط على بريطانيا بل ايضا بالكثيرين ممن اصحبوا نجوما لامعة في تاريخ الحضارة البريطانية المعاصرة كالمعمارية الديم زهى حديد التي اصبحت المرأة الوحيدة التي وصلت هذه المنزلة في تاريخ العمارة العالمية. في دنيا السياسة، برز ناظم الزهاوي الذي لمع نجمه في البرلمان البريطاني نائبا عن حزب المحافظين. ويعتبر سامي البنا قائدا في جراحة الوجه. ومثله مازن سرسم في جراحة القلب. ومن ابرز اساتذة الاقتصاد في جامعة لندن نايل القشطيني. وفي ميادين الفنون والموسيقى برز لفيف من الفنانين العراقيين كسعاد العطار وفيصل لعيبي والعزاوي واللامي واحسان الامام.

وفي السنوات الاخيرة، تألق نجم هذا العالم العراقي /البريطاني البروفسور جم(جميل) الخليلي، الاستاذ في جامعة ساري. استحوذ باهتمام الجميع بما كتبه عن مساهمات العرب العلمية في نشأة علوم الغرب. وبأسلوبه البليغ والساحر اخذ مكانته المرموقة في قنوات التلفزيون والراديو بشروحه السلسة لأدق القضايا العلمية، فضلا عن كلامه عن مساهمات العرب فيها. استمعت اليه في المحاضرة القيمة التي نظمتها له رابطة الاكاديميين العراقيين قي المملكة المتحدة. كانت العروبية هي منطلق الخليلي في المحاضرة فهو يرفض تسمية هذا التراث العلمي بالحضارة الاسلامية لأنه كتبه علماء بالعربية وتكلموا اللغة العربية ومن منطلقات التراث العربي كما ان المشاركين فيه لم يكونوا

جميعا مسلمين. كان بينهم نصارى ويهود وصابئة وسواهم.

وفي المناقشة التي تلت المحاضرة، سألته سيدة انجليزية، اذا كان العرب قد جادوا بكل هذا التراث فلماذا توقفوا وجمدوا؟ قال لقد تدفق ذلك الفيض العلمي في زمن احترم فيه المسلمون حرية التفكير والتعبير. ولكن التزمت الديني المتشدد الذي ساد فيما بعد قتل روح التفكير الحر واجهز بذلك على الرغبة في البحث والتفكير والاكتشاف، فماتت العلوم العربية. راحوا يقولون كل شيء موجود في النصوص والتراث ومن يفكر بشيء جديد يكفر. كما ان الفقر الذي وقعنا فيه لم يترك احدا ينفق على العلماء ليتفرغوا للبحث والتفكير.

الاسلام السياسي والاحزاب الاسلامية

كم اعتدنا ان نسمع من خادم الحرمين الشريفين، الملك عبد الله بن عبد العزيز، حفظه الله شتى الكلمات الحكيمة والخطوات الرشيدة. كان من اروعها واعمقها في الحكمة والبلاغة البيان المشترك الذي اصدره مع ولي عهده الامير سلمان بن عبد العزيز، بمناسبة اطلالة شهر رمضان المبارك. ضم البيان هذه الكلمات البليغة في التنديد " بأن يستغل الدين لباسا يتوارى خلفه المتطرفون والعابثون والطامحون لمصالحهم الخاصة، متنطعين ومغالين ومسيئين لصورة الاسلام العظيمة بممارساتهم المكشوفة وتأويلاتهم المرفوضة. " ويخصص البيان هذه الكلمات لمن يمتطون احزابا " ما انزل الله بها من سلطان."

وردت هذه الكلمات في مرحلة وصل فيها العالم الاسلامي اسوء صورة واتعس حالة بين بقية الامم الناهضة، جعلت العالم ينظر الينا كمخلوقات كريهة لا يعرفون كيف يتخلصون منها. وكله رغم ما فاض به الاسلام في هذه المرحلة بالذات من ثروات وامكانات لا حد لها. لا يملك الانسان غير ان يتسائل كيف حدث ذلك ولماذا؟ يقول البعض، نعم انها عقاب من الرب على فسقنا. واذا كان هناك من فسق فهو في رأيي هذه الاحزاب والمنظمات التي انضوت تحت راية الاسلام السياسي وتبنت الارهاب والتآمر والكذب والمراوغة والطائفية والتفرقة لتحقيق مصالح شخصية والتنفيس عن نزعات مرضية عصابية. لم يسيء للاسلام والمسلمين شيء كما اساء الاسلام السياسي واسلمة السياسة. ولم يعكر ويعرقل ويشوه مسيرة النهضة العربية المعاصرة منذ القرن التاسع عشر حتى الآن اكثر من هذه الاحزاب والمنظات الاسلاموية. تاريخها سلسلة من القتل والحرق والنسف والاغتيالات والمذابح الطائفية وإثارة الفتن وتشريد المفكرين وقمع التفكير واضطهاد المرأة، وهات ما عندك من الشرور وحدّث، وكلها بإسم الاسلام، كما يشير هذا البيان الملكي المشترك.

بعد المصائب التي احاقت بالغربيين في الحارب العالمية، ظهرت ميول روحية بينهم من باب السلوى عما اصابهم. تأسست احزاب مسيحية تحت راية " الديمقراطية المسيحية". فازت بالحكم في بعض الدول، وخاصة المانيا. بيد انها لم تأخذ من الدين غير الاسم. تبنت سياسة يمينية على اسس اقتصاديات السوق. لم تتدخل قط في سلوك الناس، لم يطالبوا البنات بالتستر او عدم لبس المني جوب او تحاشي نوادي العراة او حتى ممارسة الجنس الحر. لم يكفروا من بشروا بأفكار داروين او فرويد او كارل ماركس. كانت احزابا سياسية لبرالية محضة لم تخلط بين السياسة والدين.

من يريدون الدين، اتجهوا لاعمال الخير بعيدا عن السياسة. اقاموا شتى المنظمات الخيرية كمنظمة العون المسيحي Christian Aid تجمع الصدقات لمساعدة الشعوب الفقيرة. الوف الفتيات اصبحن راهبات كرسن انفسهن لرعاية المرضى وضحايا الحروب. الدين لله والسياسة للساسة. نال الاخوان المسلمون شعبيتهم في الاحياء الفقيرة بالقيام بشتى المهمات الخيرية. حسنا فعلوا ونرجو لهم المزيد. ولكنهم لن ينالوا اجرا من الرب. فعلوا ذلك لا حبا بالفقير بل لتجنيده في خدمة مآربهم السياسية. فبئس ما فعلوا.

من ظرافات الفتاوى

الظاهر ان كثيرا من القوم اخذوا يعتمدون في عيشهم وإعاشة اسرتهم على إصدار الفتاوى. والظاهر ايضا ان بعضهم امتلك حقا موهبة جيدة في الظرف والطرافة. هكذا اصبحنا نسمع عن شتى الفتاوى العجيبة. منها المر ومنها الحلو. فكان ان اضطر المسؤولون في السعودية الى حصر مهمة الافتاء بدار الافتاء ليقوم بها فقهاء عقلانيون متخصصون يشعرون بأهمية المسؤولية.

و لكن سواهم في ديار الاسلام ظلوا يخوضون في هذا البحر من الفتاوى المرة والحلوة. كان منها ما اثار ضجة في العراق بقيام احد "علماء" الدين بإصدار فتوى بسفك دم اي شيوعي وأي علماني. ويظهر أن هذا الشيخ وجد ان كل هذه القتولات الجارية يوميا في العراق غير كافية فسعى الى توسيع نطاقها. فالحزب الشيوعي العراقي يتكون من الوف الاعضاء والانصار. والعلمانيون هناك يشكلون كامل طقم النخبة المتعلمة التي اعطت هذا البلد نكهته من الوعي والعصرنة والتفكير الحر. يسعون الآن الى مقاضاة هذا المفتي لقيامه بتحريض الجمهور على القتل.

هذه واحدة من الفتاوى المرة. ولكن في مصر، بلد الفكاهة والظرف، اصدر احدهم قبل سنوات فتوى بتحريم بيع وشراء الخيار والكوسة بسبب شكلها. فتوى ظريفة ولكنها تحولت الى فتوى مرة عندما هب الاخوانيون والسلفيون لمنع انساء من شرائها وهجموا على صغار باعة الخضروات المساكين وسحقوا بأرجلهم ما كانوا يبيعونه من الخيار والكوسة. ولكن الموز الذي يتصف بنفس الشكل نجى بإعجوبة من الفتوى.

و اصدر شيخ آخر من حلب فتوى حلوة اخرى بتحريم صنع كعكة الكرواسان وبيعها وأكلها. الكرواسان تعني بالفرنسية " الهلال". قال الشيخ إنه رمز الاسلام. وابتكر الفرنسيون صنع كعكة على هذا الشكل ليشعروا بأنهم يقتلون الاسلام ورمز الاسلام بأكله ومضغه بأسنانهم. وعليه فحرام على المسلمين في حلب وخارج حلب ان يأكلوا هذه الكعكة. لم اسمع بعد ما اذا كان الاخوانيون قد هجموا ودمروا المخابز التي تصنع الكرواسان وقتلوا من يخبزها.

ماذا اذا ابتكر احد الخبازين كعكة بشكل دولار؟ هل سيحرمها الشيخ الفاضل او يحللها؟

ومن الفتاوى الحلوة التي سمعتها مؤخرا فتوى من "عالم" دين في بنغلادش. تجيب الفتوى على هذا السوآل الذي يخطر في ذهن سائر المسلمين. لماذا ينعم " الكفار" بهذا العيش الرغيد والثروة والامن ويعيش المسلمون في معظم الدول الاسلامية في فقر وحرمان ومجاعات واضطرابات، يقتلون

بعضهم البعض؟

ارجع الشيخ هذه الظاهرة لعمل الشيطان. قال ان مهمته على الارض أن يلقي ببني آدم في النار ويحرمهم من الجنة. ولما كان مصير الكفار في النار على أي حال فلماذا يضيع وقته معهم؟ فتركهم يعيشون سعداء. فعل ذلك ليركز جهوده على المسلمين بإيقاعهم في المشاكل والمآسي ليجعلهم يكفرون بالله وبالتالي يقعون في نار جهنم.

هكذا يلوح لهذا الشيخ الفاضل ان كل ما نفعله ليس بإرادة الله عز وجل ولا بإرادتنا وانما بإرادة الشيطان لعنه الله! جمع احد الادباء هذه الفتاوى الظريفة في كتاب ولكنني لم اسمع بعد اي فتوى بتكفيره.

ايران في مستنقع

فيما كان الجميع يتطلعون الى استقرار الوضع في تونس على يد حكومة لبرالية متنورة، ساورتني مشاعرغريبة في ان اتطلع لغير ذلك، أن ارى الاسلامجية يستلمون الحكم. شيء غريب من واحد مثلي. تطلعت لآفاق عالمنا الشرق اوسطي فلاح لي هذا الامل البراق المتقمص بهيئة الشبح. اذا استولى الاسلامجية على بلد مثل تونس، فأنهم بكل وضوح سيفشلون. ستموت صناعة السياحة، ويهرب المثقفون والمهنيون المتنورون وتتخبط سياسة الحكومة في محاولة تطبيق المستحيل وتتضاعف البطالة في البلاد. وعندئذ يكتمل هذا العقد الثلاثي: ايران والعراق وتونس، دولتان شيعيتان وثالثة سنية: العقد المكتمل للفشل والاحباط والتخلف والشقاء. وباكتماله سيتضح للجميع سقم البرنامج الاسلامجي، شيعيا او سنيا، وخطره على سعادة المجتمع وتقدمه. وعندئذ، وكما سبق لي ان لوحت، سيبدأ العد التنازلي لأفول الحركة الاسلامجية وزج الدين في شؤون الدولة وتبني الارهاب.

ستتحمل ايران مسؤولية كبيرة عن هذا الفشل وما حل بالاسلام من تشويهات وكل هذا الوسخ الذي لحق بالشخصية الاسلامية. لايران مطامحها التاريخية في الشرق الاوسط. تجددت هذه المطامح بفكرة تصدير الثورة الاسلامية. كتبت في حينها وقلت ان امام الخميني فرصة جيدة لأثبات دعواه بإعادة الجزر الثلاث التي انتزعها خصمه الشاه من العرب. لم يفعل ذلك. ففقدت ايماني بمصداقية تلك الثورة. والآن قدم الامريكان العراق على طبق من ذهب لايران. فسارعت لتصدير تلك الثورة اليه وحصل العراقيون على التخبط والاحباط ومسيرة التخلف الحالي.

تميز شيعة العراق في العهد الملكي بالتحرر والعلمانية والتعلق بالمدنية والمعاصرة. منهم خرج ؤلئك الاعلام للفكر الحديث، الجواهري والشبيبي الذي انكب على دراسة الادب الفرنسي في صحن مسجد الامام علي، والخالصي ومحمد صالح بحر العلوم والدكتور الوردي والدكتور جواد علي والنحات محمد غني وسواهم. قادوا الحركة التقدمية في العراق ودعوا الى سفور المرأة وتحررها وفتحوا مدارس للبنات. هكذا حلمت مع من حلموا بسقوط صدام حسين في ان تؤل الامور بيد هذه الطائفة المتحررة. ولكن العكس هو ما وقع. ويا للخيبة! فما الذي حدث وكيف تغيرت الموازين ومن غيرها؟

هنا يأتي الدور الايراني بتصدير الثورة الايرانية السلفية لشيعة العراق. وبها انطفأت شموع الحرية وانوار العلم وانهار سلطان القانون. ولكن علينا هنا ان نتذكر، عسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

ستصبح التجربة الايرانية في العراق درسا لكل من يفكر بالتعاون معها او التطلع اليها. من يريد التخلف وشيوع الفساد فليمد يده اليها. بيد ان تبعات التجربة لا تقف مع الاسف عند حدود العراق. فما لحقها من شنار سيلحق بالدين الاسلامي ككل. فسيقول القائلون شتى ما يقولون عن دين محمد وشريعة الاسلام وعقلية المسلمين، وهم يشيرون بأصابعهم الى ما صدرته طهران وقم ال جيرانها.

حذاري! حذاري!

الشائع الان في العراق وخارج العراق هو ان كل ما يجري في. هذا البلد المسكين لا يعود للامريكان وانما للمرجعية. بعبارة اوضح لمكتب السستاني في النجف. يتولى الامريكان الشؤون الاستراتيجية العليا ويتركون للعراقيين الشؤون الزبالة كأقتسام الكعكة وما يتساقط من مائدة الامريكان من فضلات كالمناصب الوزارية والنيابية والدبلوماسية وعقود اعمال. وعلى هذا الصعيد، راح المسؤولون العراقيون يسندون كل ما يفعلونه الى " المرجعية". اذا عينوا قاضيا جاهلا بدون اي شهادة، قالوا هكذا طلبت المرجعية. اذا نفذوا مشروعا فاشلا ورقيعا اسندوه اليها. بالطبع لا تستطيع المرجعية ان تصدراي اوامر او تكذيب في مثل هذه المواضيع. المرجعية مؤسسة دينية وليس ادارية ولها سلطات قانونية او دستورية. وهكذا راح الشطار يدعون بأي شيء. انا من اقرباء المرجعية..انا مكلف بأمرها. انا مرشح منها. انا لي دالة عليها. يقول ذلك والمساكين في االنجف لا يستطيعون ان يؤيدوا اويكذبوا. ينال الرجل ما يريد. يسرق ولا احد يجرؤ على محاسبته. يبرز شهادة مزورة ويقبلونها على مضض. يخطب امرأة ويقول انا محسوب على المرجعية فينالها بفلسين مهر.

استغلال العلاقة من اشنع واخطر عيوب الدول المتخلفة. ما حدث في تونس حلقة منها. كان الرئيس الاسبق رحلا نظيفا نزيها ولكن اقرباءه وانسبائه استغلوا علاقتهم لمصالحهم الخاصة بشكل اثار غيض المحرومين من مثل هذه العلاقة، وعلى الأكثر بدون علمه. هذا ما جرى في كل مراحل الحكم في العراق. و للحيطان اذان. هذه امور انكشف بعضها وسينكشف كلها. فتتحمل جيفتها المرجعية مع الأسف، مثلما ستتحمل مسؤولية كل هذا الفساد و الفشل والاحباط والتخلف الذي ما زال يجتاح العراق كل هذه السنوات العجاف. وسيحسب عليها. يظهر ان من يحملون مظلتها مستأنسون بهذه المهابة والسلطة التي لم يحلموا بها من قبل. ولا يريدون ان يفكروا بعواقب الغد. ولكن فلتسمح لي بأن اجري لها هذا الحساب. لقد حظت حتى عام 2003 باحترام عموم الشعب العراقي بكل طوائفه وقومياته بوقوفها خارج الساحة السياسية وبإلتزامها بمبدا فصل الدين عن السياسة الذي تلتزم به سائر الدول الناضجة. هكذا حافظت على سمعتها ونقاوتها ونظافتها. فالسياسة عالم وسخ. قلما يدخله انسان ويخرج منه نقيا من كل ملامة. وهذه السنوات العجاف من اوسخ، ما مر به العراق من سنين. ولا بد ان تتوسخ المرجعية بأوساخها بزج نفسها فيها. فتفقد احترامها التقليدي بين الناس.

يا ليت الامر ينتهي بها. ولكنها هيئة دينية شيعية تستمد سلطتها من الدين الاسلامي. والمذهب الشيعي. ما سيلحق بها من وساخة سيلحق بالدين الاسلامي والمذهب الشيعي. هكذا رحنا نسمع من يقولون: هذا ما تحصلون عليه عندما تسلمون شؤونكم بيد اناس لا علم لهم او خبرة في الحكم وتتركون الملالي يديرون اموركم وتنتخبون نوابكم كما يأمر السيد، ويقضي ساستكم جل وقتهم في الجري بين بغداد والنجف، وتخلطون بين السياسة والدين.إن ما يجري في العراق سيؤثر على مستقبل الاسلام ويهم سائر المسلمين بغض النظر عن انتمائاتهم الطائفية والقومية.

عود للمالكي والاحمدي

اثارت مقالتي " المالكي والاحمدي" تعليقات كثيرة تفرض علي معالجتها. تصور البعض ان تأييدي للمالكي يعود لطائفيتي. هل انقلب المالكي سنيا؟ فانا من اسرة القشطيني العريقة والنقية مائة بالمائة في انتمائها السني. الانتمائات الطائفية والدينية لم تدخل في حساباتي قط. عرضت نفسي للقتل في الدفاع عن اليهود. لقد استلم السنة حكم العراق واساؤا حكمه وقضوا ايامهم يتآمرون على بعضهم البعض. والآن وقد فلت الحكم من ايديهم فلا يلومن الا انفسهم. تبين اليوم انهم الاقلية في البلد. وكديمقراطي ارى ان عليهم ان يحترموا رأي الاكثرية الشيعية.

لسؤ الحظ ان اكثرية هذه الاكثرية تتكون من فلاحين ومواطنين اميين جهلاء. استعملوا اصواتهم في اعطاء المجلس هذه التركيبة الطائفية والسلفية والانتهازية. انها الشرعية الديمقراطية في اقبح صورها. لقد كتبت وتكلمت في عدة مناسبات ابشر بضرورة حصر حق الاقتراع بالمتعلمين، مثلا خريجي الدراسة المتوسطة. التقليد الاعمى للصيغة الغربية لا ينفعنا فلا يوجد في الغرب مواطنون اميون مثلنا.

" شختك بختك! هذا الحاضر هذا الموجود." والمجلس منتخب شرعيا. له حق نزع الثقة من المالكي واسقاطه شرعيا. ولكنه لم يفعل لأن اكثرية النواب معه ولن تصوت ضده. الاكثرية المطلقة ليست مع علاوي. كل هذه الاعتراضات التي قرأتها ضدي وضد ما قلته تنبع من جذور النزعة الدكتاتورية المستأصلة حتى في قلوب مثقفينا. يعز عليهم ان يعترفوا بأن المالكي يمثل رأي اكثرية المجلس والمجلس يمثل اكثرية الشعب، وبالتالي فله الاحقية في حكم العراق. بالطبع انا كرجل علماني امقت حزب الدعوة واي حزب سلفي او ديني او طائفي. ولكن من انا امام ارادة الشعب العراقي الذي لا يسمعني ويسمع ما يقول له " السيد"؟

للعراقيين نزعة تاريخية في معارضة اي رجل يحكمهم. يبدو لي انني الشاذ الذي يثبت القاعدة. انني اميل لعكس ذلك تماما. فأنا بصورة عامة اقف مع من يحكم البلد انطلاقا مما تقوله لي مصارين بطني. وهو ان من الافضل اصلاح الحاكم وتقويم حكمه من محاولة اسقاطه واستبداله بآخر. ادارة بلد مثل ادارة متجر او معمل، تتطلب خبرة وتجارب واتعاظ بالاخطاء، او ما يسميه العلماء " التجربة والخطأ".

و لكنني وقفت في الأخير ضد صدام حسين لسبب رئيسي هو وصولي لهذا الاقتناع بأنه رجل

مختل العقل. والشرع يقضي بمنع المختل من التصرف. ورغم ان مصاريني تقول ان كل من يقبل حكم العراق الآن، بل وفي كل اوان، لابد ان يكون مختل العقل، فأنني لم اجد حتى الآن ما يوحي بذلك في المالكي باستثناء تهالكه هذا على حكم العراق. المرجو منه الآن ان يستعمل عقله في تبين هاتين الحقيقتين: اولا ان ايران اليوم لن تكون ايران الغد. كل الانظمة الثورية مآلها السقوط. ليس من العقل ربط مستقبله ومستقبل العراق بالنظام الحالي في طهران. ثانيا ان العلمانية جينات تجري في دم الشعب العراقي منذ الوف السنين. فرض السلفية عليه لن يثمر الا المزيد من المصاعب في احوج وقت للاستقرار والبناء والتطوير.

للتحيات حكايات

السلام والتحية ركن اساسي من لغتنا ومن حياتنا الاجتماعية والسياسية، ولكن لها مدلولاتها، مما جعل صيغتها تتفاوت بين الامم حسب نوازع الامم وظروفها، بل وتتفاوت بين فرد وآخر كما نلاحظ غالبا. يربط الغربيون تحياتهم بالجو والوقت فيقولون صباح الخير ومساء الخير ونهارك سعيد وليلة سعيدة وهكذا. ربما كان ذلك بسبب تقلب الجو في اوربا. فالحديث عن الجو هو رائد الانجليز والوسيلة المثلى عندهم لمغازلة امرأة. وكلها تحيات وثنية في الواقع. وفي تقليدنا الاعمى للغرب، اخذنا ذلك منهم. فتحيتنا التقليدية هي " السلام عليكم". والسلام هي التحية التي آمن بها واتبعها ابناء الاديان السماوية. نحن نقول سلام واليهود يقولون شالوم. شاعت بيننا بعد ظهور الاسلام، والا ففي الجاهلية كانوا يحيون بعضهم البعض بتحية وثنية على منحى الغربيين.

يروي ابن هشام فيقول انه عندما ذهب عمير بن وهب لمقابلة النبي صلى الله عليه وسلم حياه بقوله، " انعم صباحا" فاعترض عليه النبي وقال: " قد اكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير. بالسلام، تحية اهل الجنة."

و كان الرسول الكريم يشير بذلك الى ما ورد في سورة الواقعة عن وصف الجنة:" لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما الا قيل سلاما سلاما." وقد تردت هذه الكلمة في القرآن الكريم نحو 42 مرة. وهكذا اصبحت جزء من كلامنا فمن المعروف عن محمد مهدي الجواهري كثرة ترديده للسلام، سلم حتى على الضفادع، سلام على جاعلات النقيق... لم يترك الجواهري شبرا من ارض العراق دون ان يسلم عليه في شعره.

اضفنا اليها من باب التخصيص كلمة "عليكم". فسلامنا مقتصر على من نخاطبه " السلام عليك." والسلام عليكم. ومن الواضح ان المدلول هو اننا جئنا اليك بالسلام. ولهذا لا نستعمل الكلمة عندما نظمر له شرا وقتالا. لا استطيع ان اتصور شخصا يضرب آخر وهو يقول له " السلام عليك."

و لهذا ايضا فليس من المعتاد عندنا ان تستعمل المرأة هذه الصيغة من التحية فالقتال ليس من شأنها. لاحظت ان المرأة الريفية في العراق تحيي الرجل بكلمة " بالقوة." و" الله يقويك." وهي كلمة ربما يجد فيها اتباع فرويد مدلولا اعمق.

و لكن للعراقيين صيغة اخرى للتحية يتفردون بها بين كل العرب. ولاشك انها ترتبط بنوازع العنف الذي يميز حياتهم. فعندما تدخل مجلسا تسلم على الحاضرين بكلمة " السلام عليكم". فيردون عليك

بمثلها، " وعليكم السلام." ولكن حالما تجلس تسمع كل واحد منهم، فردا فردا، يقول لك: " الله بالخير." وعليك ان ترد على كل واحد منهم، واحدا بعد واحد وتكرر الكلمة، " الله بالخير." اذا سكت احدهم ولم يلق عليك تلك الكلمة فهو انذار بالشر اوالاحتقار او القتال. وينطبق ذلك عليك ايضا. اذا لم ترد على واحد منهم وتنظر في وجهه وتبتسم وتقول " الله بالخير" فهو كذلك انذار له بالشر او الزعل او القتال.

مشكلة خطيرة

ما من امرء اتوق للقياه على وجه الارض اكثر من اسلامجي انتحاري. لا اجده يقول شيئا عما يريد تحقيقه من اهداف، فترك في نفسي اسئلة كثيرة اود طرحها عليه.

اثارت المحفزات للعمليات الانتحارية والعمل الارهابي عموما ابحاثا وتفسيرات عديدة. فسر البعض تفجير كنيسة النجاة وقتل المسيحيين بأن الغرض منه اعلامي. الاعلام شيء مهم عند كل منظمة سياسية او دينية وضروري للحصول على الرجال والمال. قالوا ان القاعدة لاحظت ان قتل المسلمين اصبح مألوفا ولم يعد يأبه به العالم. رأوا ان قتل المسيحيين يلقى صدى اكبر في الغرب. ففتحوا هذا الباب. قال آخرون ان القاعدة فشلت في اثارة حرب طائفية بين الشيعة والسنة كوسيلة لتقويض الوضع في العراق. فاتجهوا لاثارة مثل هذه الحرب بين المسلمين والمسيحيين. الرأي ألآخر هو ان القاعدة تنوي تنظيف المنطقة من النصارى، ولكنني لا ارى ذلك شيئا يهمها، فهي ستواصل عملياتها، نصارى او لا نصارى، وعراق او لا عراق. مخططاتها اوسع من مجرد هذه البقعة الصغيرة من العالم. تطلعاتها تطلعات استراتيجية عالمية وعولمية. فما هي هذه التطلعات؟

تزامنت الحملة ضد النصارى بالحملة لتقتيل العلماء والاطباء وتهجيرهم. اعتقد البعض ان ايران حرضت عليها ورأى آخرون ان اسرائيل ورائها. ولكن هذه الحملة تزامنت ايضا مع الهجمات الارهابية على المدن الغربية.

هذه كلها اجزاء من استراتيجية نجد تطلعاتها في فكرة اقامة الخلافة على العالم ورفع راية محمد فوق قصر بكنغهام وكل هذا الحقد والكره العصابي للمدنية الغربية. ما هو سر ذلك؟ يعود ذلك للخوف على المعتقدات الدينية التقليدية. لابد ان لاحظوا كيف ان التقدم العلمي منذ ظهور داروين قد نسف الدين في الغرب. لا تزيد نسبة المؤمنين في بريطانيا الآن على 3% وهي آخذة بالتنازل المستمر. والمتوقع ان تصبح المسيحية وطقوسها في نهاية هذا القرن في اوربا مجرد نشاط فولكلوري قديم يتعلق به نفر من غريبي الاطوارنتفرج عليهم. راحوا يبيعون ويهدمون كنائسهم الفارغة. ادى الالحاد الى انهيار القيم الاخلاقية القائمة على الدين فشاعت الاباحية وانتشر الزنى بين المحارم، وحتى بين الاولاد وابويهم. ساعدت على ذلك حبوب منع الحمل، نتيجة اخرى من التقدم العلمي. وباعتيادنا على تقليد الغرب في كل شيء، اخذ بعض ذلك بالتسرب الينا. اخذت تشيع بيننا ممارسات لم نعرفها في تاريخنا، مثل العملية الشفاهية وتبادل الازواج. تحاول الدول النفطية التطور والعصرنة بضخ البعثات

الدراسية للغرب. فيتشرب المبعوثون بذلك. يعودون وقد تعلموا كل شيء عن مستجدات الفنون الجنسية ولا شيء عن هندسة النفط او الغاز.

شعر الاسلاميون بأن لا سبيل لوقف هذا الزحف الغربي بدون ضرب المدنية الغربية في عقر دارها وقمع التطور العلمي. وهو ما يفسر انخراط الكثير من خريجي العلوم المسلمين في العمليات الانتحارية. فقد شعروا، اكثر من غيرهم، بجبروت العلم. فلا يمر يوم الا وخرج العلماء باكتشاف جديد ينسف ركنا آخر من المعتقدات التقليدية.

بقتل العلماء والاطباء، يذكروننا بما كانت تقوم به الكنيسة في القرون الوسطى بحرق كل من يأتي بنظرية جديدة تنقض تعاليمها. وكادوا يحرقون غاليليو لولا تراجعه وتوبته. من زاويتها، كانت في الواقع مصيبة في عملها هذا فتلك الاكتشافات صبت في العلم الحديث الذي ادى لظهور داروين وسبنسر وفرويد وبرتراند رسل وسواهم ممن سددوا ضربات قاضية ضعضعت الايمان في الغرب. ولما كان المسيحيون يمثلون في عالم الاسلام الشريحة المتعلمة والمتعصرنة ومنهم نسبة عالية من الاطباء والعلماء ولهم روابط روحية مع اوربا المسيحية فقد اعتبروهم حصان طروادة للمدنية الغربية، وبعين الوقت هدفا رخوا يسهل ضربه. وهو موضوع لا بد لي ان اتوسع فيه بعض الشيء.

من نتائج العلم الحديث هذا التقدم المذهل في التكنولوجيا. لاحظ الاسلاميون اخطارها على الايمان. فهي ببراعتها السحرية تثير في النفس شتى التساؤلات. اذا كان التكنوقراط يعطينا بعلمه هذا التلفزيون، فما الذي اعطانا اياه الشيخ بعلمه وعمامته؟ من منا لا يتذكر هوسة المعدان عندما رأوا الطائرة تطير امامهم في العشرينات فراحوا يهوسون " متعجب خالق له بعيرة." الانبهار بمعجزات التكنولوجيا الحديثة ظاهرة كثيرا ما تملكت مشاعر البسطاء. ما ان رأت جدتي رحمها الله الراديو وسمعت هذا الصندوق ينطق حتى قالت: " ما بقى على الكفار غير ان يخلقون بني آدم!" تنتظر ذلك من الكفار، اما منا نحن المؤمنين، فلا تنتظر شيئا.

من النتائج المذهلة للتكنولوجيا ظهور الانترنت التي مكنت حتى الاطفال من التفرج على افضح الصور والافلام الجنسية والخلاعية المثيرة. وبما تضمنته من الشات واساليب المراسلة والاتصالات راح الشيبة والشبيبة يتبادلون الغراميات المثيرة والعناوين والمواعيد. ومعها جاءت حبوب منع الحمل لتزيل اي مخاطر او مخاوف. وبشيوع المجلات والافلام الخلاعية المثيرة لهذه الموديلات والممثلات الشقراوات الفاتنات، اللحم الابيض، ازداد شعور المواطن بالكبت والحرمان من هذا العالم الوردي في الغرب فغلت في نفسه مشاعر النقمة على هذا العالم المحروم منه.

بمناسبة عيد الميلاد المجيد (الكرسمس) الماضي نقل التلفزيون العراقي الصلاة من كنيسة بعشيقة في نينوى. لاحظت ان البث ضم لقطات للجوقة الانشادية من فتيات وسيمات غير محجبات نثرن خصلات شعرهن الجميل ورحن ينشدن من ثغور يانعة هذه التراتيل الموسيقية البارعة. قلت لنفسي هذه غلطة من المخرج. فهذه اللقطات ستثير ضغينة الاسلاميين المتشدين.

لقد شعر الاسلاميون بما يترتب على منتجات المدنية الغربية من نتائج سلبية على الايمان. والحق معهم في رأيي. حاول المصلحون منذ القرن التاسع عشر، وعلى رأسهم محمد عبده والكواكبي تطوير الاسلام بما يتماشى مع مستجدات العصر. ولكن المشكلة اكبر منهم واعمق. وتذكرنا بما فعله المصلحون الغربيون وعلى رأسهم لوثر وزونغلي. ادت عمليتهم الى اغراق اوربا بحروب دامية استمرت عقودا من السنين. كل ما حققته هو ان اجلت نتيجة الصراع واعطت الايمان الديني فسحة من الزمن ولكنها في الاخير، وكما رأينا في بريطانيا والغرب عموما الآن، لم تستطع ان تحقق انتصار الايمان الديني على الايمان، او قل الشك، العلمي.

لابد ان لاحظ قادة الحركات الاسلامية المتشددة هذه النتيجة. فشعروا بأن الاصلاح لا يحل المشكلة او يضمن النصر الحاسم في هذا الصراع الطويل. اذا كان الأمر كذلك، فلنحمل السلاح ونهاجم مراكز هذا الشر، شرور المدنية الغربية حيثما تواجدت ورفعت راياتها. وبالطبع ادركوا ايضا مدى تفوق هذه المدنية الغربية عليهم، بكل ما تملكه من علوم وتكنولوجيا وثروة، فراحوا يتصرفون بكل هذا التشنج والعشوائية، ومن ذلك مهاجمتهم في الواقع لأخوان لهم في الايمان بالله، المسيحيين. ما نشهده اليوم من فضاعات هو حلقة اخرى من هذا الصراع الطويل بين الايمان الديني والايمان العلمي، بين المعتقدات القديمة والمكتشفات الحديثة، بين السلفية والعصرنة. لقد رأينا نتيجة هذا الصراع في الغرب، وما قدر علينا هو ان ننتظر نتيجته في الشرق. وسيكون انتظارا مأساويا طريقه محفوف بالدموع والدماء.

ايام فاتت...

السمسار النبيل

وردت في كتب الادب العالمي حكايات كثيرة عن البغي الفاضلة، وهي العاهرة التي تلعب دورا نبيلا في إحقاق الحق ونصرة المظلوم ومساعدة المحتاجين من الناس. كان منها رواية جان بول سارتر الخالدة بهذا العنوان " البغي الفاضلة". تروي قصة عاهرة امريكية بيضاء لعبت دورا حاسما في انقاذ رجل اسود بريء من الأعدام والكشف عن المجرم الحقيقي الابيض البشرة. لي في الحقيقة قصة مشابهة وحقيقية عن بغي فاضلة في بغداد سلمت جسمها لضابط مخابرات صدام حسين لقاء اطلاق سراح شاب بريء ليعود فتراه امه قبل ان تلفظ آخر انفاسها.

الحكايات من هذا النوع كثيرة ولكنني لم اسمع حتى الأيام الاخيرة قصة مشابهة عن قوّاد (سمسار) نبيل. بيد انني اعترف بأنني عندما كنت موظفا في دائرة النفوس قصدني احد كبار سماسرة المبغى العام المعروف بالكلجية في بغداد ليحصل على دفتر نفوس يمكنه من الذهاب لأداء فريضة الحج الى بيت الله الحرام. لاحظ الرجل الابتسامة الساخرة على وجهي وانا اقرأ عريضته. مال برأسه نحوي وهمس قائلا، " ابني، هذي الفلوس اللي راح احج بها لبيت الله الحرام ليست من تلك الفلوس." هنأته على توبته وذكرته بأن رحمة الله واسعة.

كان هذا عندما كان البغاء مسموحا به في العراق حتى عام 1956. وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن بحراسة الشرطة ورعاية موظف صحي من منطقتهن المعروفة بالمبغي العام، او كما يعرفها العامة بالكلجية، قريبا من وزارة الدفاع. ولا بد ان يتشائل القوم، اي المؤسستين كانت انفع للناس واكثر شعبية بين الشباب في تلك الآونة من تاريخ العراق الحديث.

خرج ذات يوم اسماعيل ابو ياسين، احد كبار السماسرة في تلك الحارة، من بابها الرئيسية وصولا الى شارع الرشيد. اشار بيده الى احدى سيارات التكسي السرفيس، او ما يسمى في العراق بتكسي النفرات، وهي التكسيات التي تنقل عدة ركاب يدفع كل منهم اجرته الخاصة به. وكانت عشرين فلسا من باب المعظم الى الباب الشرقي. توقفت سيلرة التكسي عند مدخل المبغى فركبه القواد ابو ياسين وانطلق به نحو الباب الشرقي. ولكنه لم يكد يصل جامع الحيدرخانة حتى شاهد السائق امرأتين تشيران له بالوقوف. هم بإيقاف التكسي لحملهما ولكن السيد اسماعيل ابو ياسين هتف به: " لا توقف يا

ولد! امش! انا ادفع لك اجرتهن." استغرب السائق من هذه المداخلة والكرم الحاتمي. اطاع ما قاله السمسار وواصل السير.

وصلا اخيرا موقف التكسيات في الباب الشرقي فدفع له السمسار عشرين فلسا عن نفسه ثم دفع اربعين فلسا عن السيدتين اللتين لم تركبا. استلم السائق المبلغ ولكنه لم يستطع مقاومة غريزة الفضولية التي اشتهر بها العراقيون. " شكرا على الفلوس. لكن اريد اسألك هالسوآل. ليش ما خليتني اركب هالسيدتين؟ تعرفهن؟"

"ابني يظهر انت ما تعرفني. انا قواد مشهور. اسماعيل ابو ياسين. كل الناس يعرفوني قواد. اذا ركبت هالحرمتين الشريفتين معي بالتكسي، الناس راح يتصوروهن قحبتين من قحابي ماخذهن اقود عليهن. وهذا حرام وإثم كبير."

ابتسم السائق واعجب بمقال الرجل. فقال:" عمي الله يجازيك ويكثر من امثالك."

وهو ما اقوله انا ايضا الله يجازيه وما احوجنا لأمثاله اليوم.

عندما ينسى رجل الدين كلمته

يناقش افلاطون في جمهوريته الفرق بين الفلسفة والشعر. فيرى ان الشعر معرض للنسيان في حين ان الفلسفة تخلد لأنها تتعامل مع الحقائق. ولهذا لم يعط اي مكانة في مدينته الفاضلة " الجمهورية" للشعراء والفنانين. وكان استاذه سقراط قد تناول هذا الموضوع بشكل آخر فراح يفسر لماذا يسخر ويضحك الناس على الفلاسفة ومظهرهم المبهذل. يقول ان ذلك يعود لأن الفلاسفة مشغولون بالتفكير والسعي وراء الحقائق وتفسيرها وليس في الامور اليومية العارضة.

ينطبق ذلك على الكثير من رجال الدين، ولاسيما المتصوفة منهم لانشغالهم بالذات الالهية والذوبان فيها. يورثهم ذلك الذهول والنسيان. وهذا ما يجعلهم عرضة لسخرية الظرفاء. فقلما تدخل مسرحا كوميديا في الغرب دون ان تسمع الممثلين ينكتون على رجال الدين. الاخيار منهم مشغولون بالتفكير في التقرب لله والاشرار منهم مشغولون في التفكير بمخادعة الجمهور وغشهم. اشتهر معظم قادة الفكر الديني بظاهرة النسيان والذهول، وعلى رأسهم ذلك الرائد المسيحي توماس اكوينس الذي رسم الخطوط الايديولجية للمسيحية في اوربا القرون الوسطى.

المظهر المألوف لرجل الدين اطلاق العنان لشعره. يظهر دائما بلحية وجذائل طويلة. والطريف ان ذلك ينطبق على الكهنوت في سائر الاديان. قالوا خرج رجل منهم في سفرة طويلة مع حلاق ورجل اصلع واملط. ادركهم الليل فقرروا المبيت حيث كانوا على ان يتولى واحد منهم الحراسة بالتناوب. وقعت القرعة اولا على الحلاق ونام الآخران. سرعان ما شعر الحلاق بالضجر والملل فسعى لاشغال نفسه بحلاقة شعر رجل الدين. انتهت نوبته وحل موعد رجل الدين فأفاقه ليستلم الحراسة. مد الكاهن يده الى رأسه فلم يجد اي شعر على رأسه او ذقنه فقال للحلاق. ليس انا. لم تحل نوبتي بعد. اذهب وافق رجل الدين!الفكرة طبعا هي ان الكاهن يعيش بلحيته ويفقد شخصيته بدون لحية.

هناك كثير من الطرائف المتعلقة بنسيان الكهنة. منها ما شهدته في جنازة زميلي الاذاعي فرنسيس. زودنا الكاهن بالحقائق الاساسية عن حياة الفقيد وانه كان من ابناء القدس. لسوء الحظ كانت هناك جنازة اخرى لسمكري. ولكن الأمر اختلط على القس فراح يتلو تأبينه لزميلنا المقدسي على السمكري وتأبين السمكري على المرحوم فرنسيس! ومثلها ما جرى في حفلة قران في الكنيسة فغلط القس وراح يتلوا نصا جنائزيا للتأبين بدلا من نص عقد الزواج!

من اطرف ما سمعته من نسيان الكهان، كان عن قس انطلق يعظ جمهوره فقال ان احلى يوم

في حياته مر به عندما كان في احضان امرأة. مسك السامعون انفاسهم لهذه الفضيحة. ولكنهم سرعان ما انفجروا بالضحك والتصفيق عندما اضاف: وكانت تلك المرأة والدتي.

كان بين الحاضرين قس آخر اعجبته الحكاية البليغة فقرر استعمالها في كنيسته. انطلق فقال ابشركم بأن احلى يوم في حياتي...الخ. فصعق المستمعون ثم مضى ليقول الجملة الثانية ولكنه نسي كليا ما قاله زميله. راح يفكر ويفكر، ومضت عدة ثوان وهو يفكر حتى لزم ان يقول شيئا فقال: " ولا اتذكر الآن من كانت تلك المرأة!"

قاض في الجنة وقاضيان في النار

نفهم ان يشيع الفساد بين الولاة ولكن من الصعب تقبل ذلك بين القضاة وهم المسؤولون عن تطبيق الشريعة وينطقون بالحكم باسم الله ويعملون من اجل احقاق العدل. بيد ان ضلوعهم في الرشوة والفساد عموما اصبح ديدن الكثيرين منهم حتى قالت العرب قاض في الجنة وقاضيان في النار. وكان ان اعتذر ابو حنيفة عن قبول هذه الوظيفة حفظا لروحه وتقواه عندما حاول المنصورفرضها عليه فقال للخليفة: لك حاشية يحتاجون لمن يكرمهم، وانا لا اصلح لذلك. فقال له " كذبت فأنت تصلح. "

"حكمت لي على نفسك. كيف يحل لك ان تولي قاضيا وهو كذاب؟"

انعكس الكثير من ذلك في بطون الادب العربي. ومن اظرف ما جاء من وصف بديع الزمان الهمذاني للقاضي ابي بكر:

"ولي القضاء من لا يملك من آلاته غيرالسبالة (الشوارب) ولا يعرف من ادواته غير الاختزال، ولا يتوجه في احكامه الا في الاستحلال، ولا يرى التفرقة الا في العيال ولا يحسن من الفقه غير جمع المال هـ من احكامه غير جمع المال ولا يتقن من الفرائض الا قلة الاحتفال وكثرة الافتعال... فقبحه الله تعالى من حاكم لا شاهد اعدل عنده من من السلة والجام ولا مزكي اصدق لديه من الصفر (الدنانير) ترقص على الظفر ولا وثيقة احب اليه من غمزات الخصوم على الكيس المختوم... ولا حكومة ابغض اليه من حكومة المجلس، ولا خصومة اوحش لديه من خصومة المفلس..." الخ.

والواقع ان نظام القضاء كان يشجع على الفساد. فالقاضي لا يتقاضى راتبا من الدولة وانما يعيش على ما يدفعه له الخصوم من اجرة ليقضي بينهم. ومن الطبيعي ان يحكم لمن يدفع اكثر. ولهذا كانت مناصب القضاة تباع وتشترى. روى ابن اياس في بدائع الزهور طائفة من النوادر بحق القضاة المتفسخين فاستشهد بالقول السائر ان البرطيل الحجر المستطيل يلقم المشتكي عن الكلام بالحق. ومن ذلك ان قال مثلا ان القاضي القلقشندي اشترى منصبه بثلاثة آلاف دينار ثم استطاع القاضي ابن النقيب ان يأخذ مكانه برفع هذا الثمن الى خمسة آلاف دينار. ولتقدير مكانة هذا القاضي الفاض، قال فيه احد شعراء عصره:

قاض اذا انفصل الخصمان ردهما

الى جدال بحكم غير منفصل

يبدي الزهادة في الدنيا وزخرفها

جهرا، ويقبل سرا بعرة الجمل

وقال شاعر آخر بحق احد القضاة

يا ايها الناس قفوا واسمعوا

صفات قاضينا التي تطرب

يزني، ينتشي، يرتشـي

ينم، يقضي بالهوى، يكذب

وقد ترددت حكايات وطرائف كثيرة شاعت بين العامة والخاصة بشأن القضاء والقضاة ورجال الدين.

من فصول التآلف الطائفي

في هذه الايام الحالكة من تاريخ الطوائف الدينية في العراق وما حصل مؤخرا من حوادث مؤسفة كتفجير كنيسة النجاة، علينا ان نتذكر تلك الايام التي سادت فيها علاقات الالفة والتفاهم بين الطائفتين الاسلامية والمسيحية. اول ما يلفت النظر في المجتمع العراقي ان المسلمين والمسحيين واليهود وغيرهم من الطوائف كانوا كثيرا ما يسكنون جنبا الى جنب. انا نشأت في العيواضية بجوار بيت د.عبد الله القصير، من كبار الاطباء المسيحيين. وكنت العب مع ولديه خالد وزهير. في حين ان والدي كان يعلمهما ويحفظهما القرآن الكريم. شيخ مسلم يحفظ القرآن لاولاد نصارى.

من اطرف صور الاحترام الديني بين الطرفين، في العراق كما في كثير من البلاد الاسلامية كالجزائر، كان دأب بعض النساء المسلمات على زيارة الكنائس للحصول على بركة القس الراعي فيها، ولا سيما عندما يكون لديهن طفل مريض استعصى علاجه. التبرك بيد رجل من رجال الكنيسة كان تقليدا شائعا عندنا في العراق. ومن اطرف هذه الوقائع كان ما جرى عندما ذهب رجال الكنيسة الآشورية لزيارة احمد حسن البكر عندما كان رئيسا للجمهورية. اجتمع بهم ثم طلب من مار يوسف، رئيس الكنيسة ان يتبعه الى غرفته الخاصة. وهناك اغلق باب الغرفة وقال للمطران:اريد منك ان تصلي من اجلي وتبارك علي. وهنا ازداد الرجل ارتباكا وقلقا. كان المعروف عن البكر تمسكه بالدين الاسلامي. ما هذا الطلب؟ اهو مقلب؟ فخ منصوب له لايقاعه في ورطة؟ ولكن البكر واصل طلبه والح عليه. فلم يملك مار يوسف غير ان يطلب من الرئيس ان يركع امامه. ففعل وقام ابونا بالصلاة والدعاء والبركة عليه.

و الطريف ان هذه الواقعة لم تكن وحيدة في حياته. فقد تكررت عندما زاره مار شمعون، رئيس الطائفة الآشورية في امريكا فطلب منه مثل ذلك ولبى طلبه.

و كثيرا ما ذهب بسطاء الناس في بغداد لاستشارة رجال الكنيسة. وكان منها ما شهدته عندما جاء شاب مسلم الى الشماس يوسف في عقد النصارى يستشيره في اعتناق المسيحية. فمن الظواهر المألوفة في الحياة الدينية اللبرالية في العراق، كان تحول بعض الناس من دين لآخر. مسيحي يصبح مسلما او مسلم يصبح مسيحيا. كنت جالسا مع الشماس عندما جاءه الفتي بشأن ذلك. فسأله ليش يا ابني تريد تصير نصراني؟ فأجابه قائلا، المسيحية دين السلام والمحبة ولهذا اريد ان انتمي اليها. كان الشماس يوسف على اطلاع كبير بالدين الاسلامي وبالقرآن الكريم. فقال له، يا ولدي دينك الاسلامي

ايضا يدعو للسلام والمحبة، وراح يتلوا عليه بعض الآيات من المصحف الشريف. ولكن قل لي الحقيقة. ما هو غرضك من الانتقال من دينك الى المسيحية؟ وهنا لم يملك الشاب غير الاعتراف بالحقيقة. وهي انه وقع في حب ماري جارته ويريد ان يتزوجها ولكنها قالت له ان والدها متعصب جدا ولن يسمح لها بالزواج برجل غير مسيحي. وعليه فإذا كنت تحبني صحيح وتريدن تتزوجني فيجب ان تصبح مثلي وتصير نصراني.

نظر الشماس يوسف نحو الشاب وابتسم في وجهه وقال: " اسمع ابني! ترى ماكو بالدنيا كلها مرة تسوى تغير دينك على مودها!"

الدين والسياسة

تولى اول تنظيم للمجتمع الكاهن/الساحر الذي اعتقد الناس انه يستطيع ان يدير كل شيء. بيد انهم اكتشفوا عجزه عن ذلك بعد توسع المجتمع وتعدد متطلباته. فظهر بينهم من تميز بالقوة والفطنة واخذ على عاتقه تولي امور المجموعة. انه رجل السياسة المتفرغ للحكم، الملك. ولكنه ادار شؤون الشعب بالتعاون مع الكاهن والاعتماد عليه. غير ان وجهات نظر ومصالح مختلفة لدى الاثنين كثيرا ما ادت الى منازعات بين المعبد والبلاط. ظهر بذلك النزاع بين الدين والدولة بما تسبب عن مآس ومشاكل خطيرة، بما فيها حروب دامية خلال القرون الوسطى والاخيرة.

شعر الاوربيون بخطورة هذا النزاع والتناقض فسعوا الى فصل الدين عن الدولة، ولاسيما بعد توسع الدولة بما اسفر عن تعدد الاديان والطوائف والقوميات بين سكانها ثم الايمان بحقوق الانسان وحرياته. وكما سبق وقلت، اننا مازلنا نعيش في مرحلة القرون الوسطى. ويخوض الآن الاسلامجية من اتباع الاسلام السياسي ذات المعركة التي خاضتها اوربا قبل قرون، للقبض على صولجان الحكم وادارة البلاد وفق افكارهم. وبالطبع سيخسرون هذه المعركة في الأخير. واذا لم يخسروها فقل على العالم الاسلامي السلام. ولكنهم اثناء ذلك سيسببون الكثير من الضرر والموت والخراب مما رأينا صورا ونماذج كريهة منه في الآونة الاخيرة، ولاسيما في مصر والعراق وافغانستان.

اصبح وجود الاخوان المسلمين ودعاة الاخوان السياسي عقبة نحو تحرر الشعوب العربية وتخلصها من الظلم والفساد. فمن المعروف ان حسني مبارك وسواه فرضوا دكتاتوريتهم على الشعب بداعي حمايته منهم. كما ان الدول الكبرى ترددت في دعم الانتفاضات وتشككت في الربيع العربي خوفا من ان يكون البديل حكم الاسلامجية. ولربما نكتشف ان هذا من اسباب تردد الغرب في التدخل العسكري في سوريا. وحتى الاقلية المسيحية والكردية ترددت في دعم الثورة. وصل الحال الى الاقتراح بأن تبعث امريكا بجنودها لحماية المعابد في مصر. ومن الواضح انه اذا وقعت مذابح او حروب طائفية خطيرة فستضطر الدول الكبرى للتدخل وحكم البلاد، كما جرى في يوغوسلافيا. وهكذا سيسجل الاسلامجية هدفا على فريقهم. بدلا من طرد الاستعمار سيأتون به.

و حتى في هذه المرحلة الانتقالية من الربيع العربي، رأينا صورا سيئة من التطرف الاسلامجي في ليبيا وتونس ومصر. من ذلك انهم منعوا اليهود في طرابلس من فتح كنيسهم فيها.

على دعاة الاسلام السياسي ان يراجعوا تفكيرهم جيدا. عليهم ان يسألوا انفسهم. اهناك حقا اي

امكانية لتطبيق الشريعة في بلادهم؟ افلا ستؤدي الى تمرد الطوائف غير المسلمة وانسلاخها على نحو ما حصل في السودان؟ اعندهم شيء آخر غير فرض الحجاب والنقاب على الجميع ومهاجمة دكاكين الشراب؟ اليس من الاصلح لهم قبل ان ينقلب الجمهور عليهم ويكفر حتى بدينهم ويهجر مفكروهم وعلماؤهم ارضهم، ان يتركوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فيركزوا على تعميق الايمان وخدمة الانسان وتشجيع العبادة بين الناس ومكافحة المخدرات والدعوة للمحبة والسلم.

ملوك العرب يحملون راية الثورة

صرح العاهل السعودي عبد الله بن عبد العزيز حفظه الله قبل ايام تصريحا خطيرا في اطار المجتمع السعودي بإدخال المرأة عضوا كاملا في مجلس الشورى واعطائها حق الترشيح للمجالس البلدية. مجرد جلوس المرأة السعودية بجانب الرجال في مجلس ومحاسبتهم عما قاموا به من اعمال ثورة سياسية واجتماعية عميقة الابعاد تضاف لسلسلة الثورات الصغيرة الهادئة التي قننها عبر السنوات هذا العاهل الحكيم ابن ذلك النبراس الساطع للحكمة العقلانية الملك عبد العزيز رحمه الله.

لقد زرت السعودية بضع مرات واختلطت بأهلها على شتى المستويات ورجعت وانا احمل هذه الحكمة في رأسي وهي ان المملكة العربية السعودية هي الدولة الوحيدة في العالم التي حكومتها اكثر تقدمية من شعبها، ربما بإستناء الولايات المتحدة في عهد اوباما الآن.

كما يعرفني الكثيرون، انا رجل قضيت حياتي جمهوريا وثوريا واشتراكيا. ولكنني اضيف لهذه الصفات ايضا صفة "عقلانيا". وعلمني العقل ان جل هذه النكسات والتشرذمات والفوضى وفضائح الفساد التي مر بها العالم العربي ومازال، تعود جل خيوطها لقيام الانظمة الجمهورية الثورية وإسقاط الانظمة الملكية. الاصلاحات الحقيقية والحكيمة قامت وتقوم بها هذه الانظمة الملكية في السعودية والمغرب والاردن وسلطنة عمان والبحرين وامارات الخليج.

هناك من يرد علي ويشير الى الاصلاحات الكبيرة التي قامت بها الانظمة الجمهورية الثورية كالقضاء على الاقطاع والاصلاح الزراعي والضمان الاجتماعي. هذه يا سادتي اصلاحات جرت في كل العالم ونفذت غالبا بدون ثورات وقاتل ومقتول. كانت الانظمة الملكية في الثلاثينات تفكر بها وتخطط لها. ربما ابطأت في التنفيذ وتعرقلت بقلة الموارد آنئذ. كان علينا ان ندعمها وندفعها للتنفيذ بدلا من التآمر لاسقاطها.

ما يغيب عن ذهننا غالبا ان التخلف مرض عضال يصعب جدا علاجه. كلنا لنا عجائز في اسرتنا. جرب يا سيدي ان تصلح تفكير اي واحد منهم او تخلصه من الخرافات التي تعلق بها او تغير عاداته في الأكل والشرب واللبس. كان والدي رحمه الله يلبس الجبة والعمامة في العهد العثماني. نصحوه بعد استقلال العراق ان يترك ذلك ويلبس السترة وبنطلون ليتقدم في الحياة. قال كان والدي يلبس هكذا ولن اغير ما تعلمته منه. عاش ومات بالجبة والعمامة وبقي معلما في مدرسة ابتدائية في حين ارتقى اقرانه المبنطلون للمناصب العليا في البلاد. استغرقت اوربا التي تبهرنا الآن بتقدمها نحو

سبعة قرون للتغلب على تخلفها. من الحمق ان نتصور اننا نستطيع تحقيق ذلك في بضعة اشهر. لابد من الارتقاء والتقدم التدريجي، خطوةخطوة، نقلة نقلة. يمكن التسريع بهذه الخطوات بالتعليم والتوعية والقضاءعلى الامية والاستعانة بمن هم اقدر منا واعلم واكفأ.

ليس لنا جميعا غير ان نرفع ايادينا للسماء وندعو الله ان يمن على عبد الله بن عبد العزيز بطول العمر ووافر الصحة لينفذ كل ما في ذهنه من اصلاحات تنتظر دورها في التنفيذ الوئيد والحكيم. خطوة خطوة، نقلة نقلة.

الثورة والاحزاب الدينية

اعرب السيد محمد هلال من السعودية عن امتعاضه الشديد من قولي بأن الغرب قد ورط الثوار السوريين. اتفق معه في ذلك واعتذرعن خطأي هذا الذي ورطني فيه الغرب ايضا. ما كنت اقصده هو انتقاد الغرب على حث السوريين على الثورة بل وحمل السلاح ثم الامتناع عن دعمهم عسكريا، واستعمال سياسة مضطربة ومشوشة في التدخل العسكري هنا وعدم التدخل هناك. يبدو ان توريط الآخرين اسلوب دأب عليه الامريكان كما فعلوا في توريط صدام حسين بغزو ايران ثم غزو الكويت(فيما قالته سفيرتهم لطارق عزيز).

انتقدني آخرون على موقفي السلبي من الاحزاب الاسلامية. وتسائل آخرون عن سر جمود العلمانيين والديمقراطيين واليساريين ووقوفهم على التل في مقارعة الانظمة الفاسدة. السر في ذلك هو شعور هذه الكتلة بالاحباط والشك في العملية السياسية العربية. فتجربة الديمقراطية بل وحتى الاطاحة بصدام حسين لم تأت بثمرة مفيدة في العراق. ومن قبل ذلك فشلت الاشتراكية في مشاريعها. في سلطنة عمان لم تستطع اي امرأة ان تفوز بكرسي في الانتخابات. وحيثما جرت انتخابات، صوت الناخبون للجهلاء والانتهازيين. هناك يأس عام اخذ يحمل ابناء هذه الكتلة على مهاجرة اوطانهم الى الغرب حيث يجدون افكارهم منفذة.

فضلا عن ذلك، ابناء هذه الكتلة العلمانية غير مستعدين للاستشهاد والتضحية كالاسلاميين الذين يعتبرون الشهادة جزء من ايمانهم، وهم يتذكرون ما قاله الامام جعفر الصادق: " لا دين لمن دان بولاية أمام جائر". هذا سر هذه الثورة العارمة في سوريا، ومن قبلها في ليبيا. الخضوع لحاكم جائر كفر.

و من هذا المنطلق يزخر الاسلاميون بطاقة روحية هائلة في مقارعة الظلم والوقوف ضد الفساد. وهو الأمر الذي نتج عنه هذا الزواج العجيب بين الاسلاميين والماركسيين عالميا. لم يعد بيد الماركسيين غير الفكرة في حين يملك الاسلاميون القوة. كما ان الحركات الاسلامية الآن، وعلى الخصوص في مصر، تتمتع بقدرات تنظيمية وتخطيطية جيدة ولها تكتيكها واستراتيجيتها الناجحة. وبالطبع تتمتع بتأييد الاكثرية.

ولكن مشكلة الاسلاميين تنفجر عندما يستلمون الحكم. سيجدون ان عليهم ان يتخلوا عن الشريعة فالكثير من متطلباتها لم تعد تنسجم مع متطلبات الدولة الحديثة والاقتصاد الوطني والتعامل العالمي

والعولمة والكثير من المواثيق الدولية. عليهم ان يجتذوا بإسلام تركيا والاحزاب الدينية في اوربا. فالديمقراطيون المسيحيون في المانيا مثلا لا يلتزمون باي شيئء من المسيحية بل ويقفون بجانب اليمين. على نقيض ذلك تستطيع الاحزاب الاسلامية ان تميل الى اليسار وتملأ هذا الفراغ الذي خلفه الفشل الاشتراكي. تستطيع ان تقف في وجه الفساد والظلم وتطالب بحقوق الضعفاء والمحرومين واحترام القانون والشفافية وحقوق الاقليات ومحاربة الارهاب والعنف وقتل النفس بدون حق. وكلها اركان حميدة من اركان ديننا الحنيف لو ادركنا حقيقتها وتمسكنا بها. تبني هذه المباديء والتصريح والالتزام بها سيزيل مخاوف الآخرين، محليا ودوليا، من استلام الاسلاميين للحكم. ولعلهم يحققون ما فشل عنه الآخرون ويجعلون من الاسلام مفخرة نعتز بها بين الامم.

احسن فرصة

متابعة لمقالة سابقة " لا داعي للقلق"، اعلق على موجة الرعب التي سرت بين العلمانيين ولاسيما في مصر، من شبح استلام الاحزاب الاسلامية الحكم، فاستشهد بالمثل الانجليزي الذي يقول " اعط خصمك ما يكفي من الحبل ليشنق نفسه." عانت مصر بصورة خاصة من النشاط السياسي والفكري للأخوان المسلمين. وكان من حلقاته حريق القاهرة في عهد عبد الناصر. من آخر حلقات هذه السلسلة ما جرى في ساحة التحرير في اواخر نوفمبر. عملا بذلك المثل الانجليزي، اقول سلموهم ما يصبون اليه، وهو الحكم. المعروف عني التشكيك في كل شيء. ولكنني لا اشك في هذا الشيء، وهو فشل الاحزاب الاسلامية حيثما ستستلم الحكم. وبفشلهم في مصر سيننتهي امرهم لغير رجعة. مشاكل البلاد العربية اعمق واعوص من ان تحل بقيم القرون الخوالي. ادراك ذلك سيعطي شعوبنا الصحوة الحقيقية من اوهامها ويفرض عليها احتضان قيم العصر الحديث.

بيد ان لي كلمة ايضا اسوقها للاسلاميين. طالما هاموا بمزج الدين بالسياسة فأمامهم رسالة مهمة يمكنهم ان يضطلعوا بها بدون خلق مشاكل واضطرابات وزعزعة الاقتصاد الوطني. والرسالة هي القيام بدور المعارضة بدون توسيخ ايديهم بوساخات الحكم وتعريض الدين والايمان لمطبات الفشل والشك. وجود معارضة قوية من اركان الحكم الديمقراطي. سبق لي ان قلت عند فوز حماس في انتخابات غزة فحذرتهم من استلام الحكم. فهذه منظمة تؤمن بتحرير كافة التراب الفلسطيني وباستعمال السلاح لتحقيق ذلك. هذان شعاران لا يمكن لسلطة شرعية ان تتبناهما وتعمل في ظلهما. طالما كان هذا مبدأهم فالافضل لهم ان يقفوا جانبا ليواصلوا العمل المسلح بعيدا عن السلطة، مثلما فعل الصهاينة المتشددون في الاربعينات. حالما خلطت حماس بين الاثنين صبت اسرائيل حممها عليهم فلم يبق لهم غير ان ينقلوا الصراع الى صراع مع اخوانهم في الضفة.

بالنظر لشعبية الاسلاميين الآن بين الجمهور، فبأمكانهم ان يلعبوا دورا حيويا في كشف عيوب الحكام والساسة وتنوير الشعب بالتجاوزات ومناقشة برامج الاحزاب والحكومة وتعبئة الجمهور للمطالبة بالاصلاحات وتنفيذها. بإمكانهم رصد ما يجري بأموال الدولة واين تذهب وتصرف. هذه كلها اهداف شرعية تعتبر جزء من تعالم الاسلام والشريعة. وبسبغها بنور الاسلام ستكتسب قوة دافعة بين الجمهور لا تملك السلطة غير ان ترعاها وتدخلها في حساباتها. وتكون المعارضة الاسلامية قد لعبت دورا نظيفا مشكورا في خدمة الشعب، بدلا من تعليم الشعب على المراوغة والمخادعة والغش والتناقض

الذي جرهم اليه سعيهم للحكم ونيل الاصوات ومسح جوخ الدول الغربية. وكلها من اوساخ الحكم ومن جنابات السياسة.

يقولون انهم نبذوا العنف. هذه فرصة جيدة لتبني اساليب الجهاد المدني (اللاعنف) وتلقين وتدريب الجمهورعليها وبالتالي إبعادهم عن اساليب الارهاب والقتل والتخريب. بإمكانهم ايضا تعليم الجمهور على الابتعاد عن السلبية التي نعيشها الآن والتطوع للخدمة العامة، السهر على البيئة، رعاية الضعفاء، أعانة المحتاج، اسعاف المرضى، مكافحة الامية. هذه مهمات تغرس في النفوس حب الخير واحترام الاحزاب الاسلامية.

أنا واليهودي العجوز

معاداة السامية شاعت في أوربا ولم يعرف منها العالم الإسلامي غير القليل، بالطبع حتى ظهور الصهيونية. ولكنها تركزت في الغرب حتى وصل شيء منها عالمنا، كان من مظاهرها الاعتقاد بأن اليهود يخطفون ويقتلون طفلا في الأعياد ليستعملوا دمه في طقوسهم. لم يعرف العرب ذلك، بيد انه خلال القرن التاسع عشر اختفى طفل مسلم في دمشق واشيع بأن اليهود خطفوه لذلك الغرض، فهجم الناس على احيائهم بصورة منكرة حتى كشف التحقيق ان أحد المبشرين الأوربيين هو الذي اطلق الاشاعة. وفي حينها ورغم اكتشاف زيفها فإن آثارها ظلت تتردد بيننا وطرقت مسامعنا كأطفال.كان من هوايتي كطفل التجول في شارع الرشيد بأحيائه المسيحية واليهودية، وقادتني قدماي الى سوق حنون من الحي اليهودي. واذا بباب إحدى الدور تنفتح أمامي فجأة ويطل منها رجل عجوز اشيب بلحية طويلة بيضاء انسابت فوق دشداشته البيضاء. لو كنت مخرجا سينمائيا لفلم عن زكريا أو لقمان أو نوح عليه السلام لما وجدت مشهدا أفضل لتمثيلهم به.رفع يده نحوي واشار بأصابعه ان اتقدم اليه. استولى علي الهلع، ولكنني لم استطع ان اقاوم سحر أنامله التي جذبتني اليه كالمغناطيس. فتح الباب وأومأ لي أن أدخل. لم استطع غير ان اطيع فراح يقتادني بيده. رحت اتساءل أهذه هي نهايتي، يا ليتني لم ادخل. لماذا لم أهرب وأركض لأهلي؟سألني عن اسمي فأجبته، قال ما شاء الله، خالد بن الوليد. واين تسكن؟ وكم عمرك؟. يسألني عن عمري . قلت لنفسي . هذا ليتأكد أن دمي سيكون صالحا للعملية. وضع يده على رأسي وسألني، ابني خالد، تعرف تشعل نار؟ امتلكتني موجة أخرى من الذعر، هل سيقوم بطبخي على النار؟ قال: شوفني بقى شلون تشعل نار الموقد. أخذت علبة الكبريت، وبيد مرتجفة اشعلت الموقد. عاد هذا الشخص، من شخصيات التوراة والتلمود والمشنا، فقبلني من رأسي واقتادني الى الايوان، حيث استقر دولاب قديم. فتح أحد ادراجه وأخرج حفنة من الشكولاته ملأ بها جيبي. اقتادني الى الباب وانا في ذهول مطبق. فتح لي الباب وودعني داعيا لي بطول العمر والبركة. واضاف: "سلم لي على بابا".خرجت مذهولا واسرعت نحو البيت كواحد استفاق من حلم عجيب رويت حكايتي لوالدي واخوتي فضحكوا عليّ وقالوا: أوه هذا يوم سبت. ممنوع على اليهود ان يشعلوا اي نار. والمسكين هذا الرجل العجوز كان متعطشا لاستكان شاي.تقاسمنا الشكولاته وقضيت بقية الاسبوع أعد الايام انتظارا ليوم السبت، ثم السبت الذي بعده، وبعد الذي بعده، وكل سبت اقصد نفس الزقاق انتظارا للشيخ الأشيب، لعله يفتح الباب وأوقد له النار ويملأ جيبي شكولاته.

ولكن الباب لم ينفتح. ولم يظهر ذلك الوجه التوراتي القديم، خطر لي في الاخير ان اطرق الباب واسأل: "عمي أبو ساسون، تحتاج واحد يشعل لك النار"؟

ايام فاتت

ايام التسامح والغفران

في هذه الايام الكالحة التي ابتليت فيها الامة الاسلامية بالمشايخ المتشددين والمتطرفين وبالارهابيين ودعاة العنف، علينا ان نتذكر الايام الحلوة التي تمسك الناس فيها بالاعتدال وتحررت المرأة واسفرت، وشق على المرء واستعاب ان يسأل جليسه عن طائفته او دينه، وتسمى النصارى باسم محمد وتسمى المسلمون بأسم عيسى وموسى، والسنة باسم حسين وعلي والشيعة بإسم عمر وعثمان، في تلك الايام الحلوة تتلمذت على يد استاذي الجليل حسين علي الاعظمي، رحمه الله، في كلية الحقوق العراقية.

كان الملا حسين، كما كان يعرف بين اهل محلته في الأعظمية بجوار الإمام ابي حنيفة النعمان، من مشايخ المسلمين عندما تأسست المملكة العراقية، رعى الله ذكراها، يعلّم الناس دينهم ودنياهم ويفتي بينهم. انتدبوه لتدريس الشريعة الاسلامية في كلية الحقوق. مازلت اتذكر صوته الرخيم وابتسامته الوديعة ولهجته الأعظمية الاصيلة. مازلت اتذكر مخاطبته لنا، اسمع ابني.. سمعوا يا اولادي...

كان مستغرقا في النوم على سطح بيته على عادة العراقيين في الصيف، وقد دنت الساعة من منتصف الليل، عندما افاقه طرق عنيف على الباب. وصوت رجل يناديه بإسمه

"ملا حسين!... يا ملا حسين!..." لم يتمالك استاذنا غير ان يطرد النوم من عينيه، ويتناول السلم بدشداشته وينزل ليفتح الباب. وجد امامه شابا بالدشادشة والطاقية من فئة بسطاء الكسبة والشغالين. من الواضح انه كان قد عاد توا من حانة ابو عتيشة. ورائحة ابو عتيشة تعج من فمه.

" ملا حسين، ابوس إيدك. اعطيني فتوى. بساعة عصبية ووسوس لي الشيطان الله يلعنه، وطلقت مرتي بنت عمي بالثلاثة. وانا ندمان عليها. اريد ارجعها لكن الناس يقولون لي لا زم اجحشها بالأول! ملا، شلون؟ هذي بنت عمي، شلون اخلي غريب ينام وياها؟ اريدك تحل لي هالمشكلة."

نظر استاذي الجليل في وجهه وشمّ رائحة ابو عيشة في انفاسه. ابتسم ابسامته الوديعة ذاتها. وضع يده على كتف الشاب وقال له:

" اسمع ابني، هذا الإمام ابو حنيفة قدامنا يقول لازم تجحشها. وتلميذه الإمام ابو يوسف يقول لازم تجحشها. كل ائمة السنة يقولون لازم تجحشها. لكن اسمع ابني. شأسمك انت؟ "

" يسموني فاضل ابو ورطة."

" اسمع ابني فاضل، كلهم يقولون لازم تجحشها بالأول. لكن آني حسين الأعظمي اقول لك روح رجعها لبنت عمك. اعقد عليها مهر من جديد ورجعها. وآني حسين الاعظمي خطيتك برقبتي اذا اكو خطيئة."

انكب الرجل على يد الاستاذ الفاضل ليقبلها ويشكره ويدعو له بطول العمر. لم انس ذلك. ولا نسيت ما كان يردده لنا من فقه الشريعة السمحاء: " اذا ضاق الأمر اتسع."

ايام حلوة. ايام التسامح والمحبة... وفاتت.

في الجهاد المدني

كواحد من الرافضين للارهاب والانقلابات والثورات المسلحة وكل مظاهر العنف، بما فيه الحرب، شاركت في المؤتمر الذي عقد في عمان بالاردن بعنوان المقاومة المدنية. اثير في المؤتمر موضوع اللاعنف. وابدى البعض الاعتراض عليه. فقلت ان المشكلة هي ان الكثيرين يتصورون ان اسلوب اللاعنف يعني الاستسلام والخضوع. وهذا يعود للترجمة غير الوافية لما دعى اليه غاندي بإسم الاهمسا. لهذا يتحاشى الكثيرون الآن استعمال كلمة اللاعنف ويؤثرون عليها اصطلاح المقاومة المدنية. تكلمت فاقترحت اننا كمسلمين لدينا فكرة الجهاد التي اسيء فهمها في هذه الايام. فاقترحت ربطها بالموضوع وتبني اصطلاح " الجهاد المدني". وهو الجهاد غير المسلح. ويميل الكثيرون الآن لاستعمال كلمة الجهاد المدني. وفيما يلي في هذا الفصل مقالات كتبتها في هذا الموضوع.

العنف واللاعنف والمصير العربي

(نص المحاضرة التي القاها خالد القشطيني على جمهور الملتقى الثقافي العربي في لندن يوم 7 تشرين الثاني 2014)

بدأ الانسان مسيرته بالعنف عندما كان مجرد حيوان كالحيوانات لاخرى، يعيش بالقتل وافتراس ما حوله من الاحياء الاخرى. ولكنه بانتقاله من الصيد الى الزراعة والرعي اخذ ينحو الى حياة سلمية بعيدا عن العنف. بيد انه تحول فيما بعد لمقاتلة الآخرين من بني جنسه بالغزو والسلب والحرب. سرعان ما ادرك البعض اضرار ذلك ووحشيته. وكان المسيح اول رائد مهم على هذا الصعيد في الدعوة لنبذ العنف. كلنا نذكر كلمته " اذا ضربك احد على خدك الايمن فأدر له الآخر." الهمت فلسفته شتى الاولياء والمفكرين الى يومنا هذا. ظهر شيء من ذلك في رسالة نبينا محمد. وهذا موضوع كثيرا ما اثار النقاش. الحقيقة ان بإمكاننا تقسيم رسالته الى مرحلتين. المرحلة المكية وكانت رسالة سلمية ترفض العنف كليا. ويمكن العثور في القرآن الكريم والسنة النبوية كثيرا من الامثلة التي تحذر المؤمنين من القتل والاعتداء على الآخرين. " ما بعثت لأقاتل" قال لاصحابه عندما هموا بالرد بسيوفهم على اهانات المشركين للنبي. وهناك حديث طالما استشهد به السلاميون المسلمون. عدنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الآكبر. قال بعد الرجوع من معركة، فكان يعتبر القتال جهادا محدودا اما الجهاد الحقيقي الاكبر للمسلم فهو عمل الخير ومغالبة النفس على شرورها ونحو ذلك.

بيد ان هجرة المسلمين الى المدينة حولتهم الى دولة وحكومة. وكل الحكومات والدول لا تستطيع ان تتفادى الحروب ويقتضي عليها التسلح وحث ابنائها على التطوع للقتال. وكذا جرى الأمر بالنسبة لحكومة المهاجرين في المدينة. وهكذا خاض المسلمون عدة معارك وتردد في القرآن الكريم ما سمي بآيات السيف، التي تحض على مقاتلة الاعداء.

هذه مرحلة الجهاد المسلح، اوكما قال النبي الجهاد الاصغر. ولكن لسؤ الحظ جرى التركيز عندنا على هذه المرحلة واعتبروا ان الاسلام انتشر بالسيف وهو غير صحيح وفيه مبالغة كبيرة. فلو تأملنا قليلا لوجدنا ان انتشار الاسلام اعتمد على الدبلوماسية والمفاوضات وعلى الإعلام، أي الدعوة او الدعاية. واعظم وثيقة في هذا الخصوص هي القرآن الكريم وما فيه من بلاغة مؤثرة. هكذا روي عن اسلام عمر بن الخطاب. كان عدوا لدودا للنبي ولكنه عندما سمعه غفلة اخته وقد اسلمت على يد النبي وهي تتلو شيئا من آيات القرآن وقع بسحرها وتأثيرها فآمن وانضم للمسلمين. وتذكرنا كتب

التاريخ ان معظم القبائل والمناطق كاليمن وعمان والبحرين دخلت الاسلام طوعا وبالتفاوض لا بالسيف.

الوقائع الكبرى في انتصار الاسلام هي بدون شك كسب اهل المدينة الذي فتح الباب للهجرة، لم يكسبهم بالسيف وإنما بالحوار والتفاوض السلمي. فكانت الهجرة الحدث المهم الذي فتح الطريق لإنتصار الدعوة. وعلى هذا الخط تم صلح الحديبية الذي ادى لفتح مكة. واخيرا فتح مكة. كل هذه الاحداث الرئيسية الثلاثة كانت عمليات سلمية تامة. ولكننا رحنا نؤكد على معركة بدر ونتغنى ها ونتناسى هذه الاحداث السلمية. حتى الفتوحات الاسلامية لم تجر كلها بالحرب. مصر والسودان وشمال افريقية استسلمت للمسلمين دون اي صراع يذكر.

و مع ذلك فقد ازداد التأكيد على السيف بهذه الفتوحات ثم الحروب الصليبية واخيرا صراع العثمانيين ضد القوى الاوربية الذي استمر حتى الحرب العظمى 1914. وبسقوط الدولة العثمانية وسعي الشعوب العربية للاستقلال والاتحاد، واصل قادة الحركة العربية هذا الايمان بالسيف. انطلقت النهضة العربية من الحجاز واضرم العراقيون الثورة العراقية، ثورة العشرين. ودخلت سوريا في حرب مع فرنسا واخيرا تمنطق الفلسطينيون بالسلاح لمحاربة الصهاينة والانكليز.

اجتاحت المنطقة موجات ايديولجية من اوربا، الماركسية من اليسار والنازية والفاشية من اليمين وكلها بشرت بالسلاح واستعمال القوة والقيام بثورات حمراء للتخلص من الرأسمالية والاقطاع والاستعمار وللأصلاح الثوري للأوضاع. التقت هذه الاتجاهات مع الاتجاه الاسلامي في الايمان بالسيف والجهاد المسلح. هكذا دأبوا على تلقيننا في المدارس بهذه الروح:

لاحت رؤوس الحراب... تلمع فوق الروابي

هيا فتوة للجهاد: هيا هيا هيا هي!

جرى في معظم الدول العربية تنظيم الطلبة بشكل عسكري، ملابس الخاكي وحمل العصا ثم البندقية.

وبهذا الهوس بالعنف والتأكيد على السلاح، تقدم الضباط للقيام بسلسلة من الانقلابات العسكرية وسيطر العساكر على الحكم. وراحوا يتقاتلون فيما بينهم ويثورون على بعضهم البعض وينفقون واردات البلاد على السلاح. وتعاظم هذا التأكيد والتركيزعلى السلاح والقوة منذ الاربعينات نتيجة الحروب المتواصلة مع اسرائيل. وهكذا تناسينا مهمة النهوض بالوطن وبالشعب وبالتنمية الاقتصادية والبنيوية. بدلا من التعليم الالزامي الذي نادي به الكثيرون في العراق وبقية البلدان العربية وعلى

رأسهم الزعيم رضا الشبيبي فرضوا علينا التجنيد الالزامي. الكلاشنكوف الآن اكثر شيوعا من الخبزو الكتب بين شبابنا وتواجد السلاح يدفع دائما بصاحبه لاستعماله. وكذا شاع العنف والارهاب في بلداننا العربية والاسلامية.

المصيبة ان هذا التأكيد على السلاح اودى بنا في سلسلة من النكبات والهزائم. فات على الجميع ان يدركوا ان الشعوب العربية ليست في الواقع شعوبا عسكرية. رغم سعة الامبراطورية العربية فإننا آثرنا التمتع بالحياة ونظم الشعر ومجالس اللهو وتبادل الجواري وتركنا الامبراطورية تتفتت وتتمزق وعهدنا بدفاعها للآجانب، العجم والترك والمماليك. لم نسع قط لتطوير قوة عسكرية ضاربة متخصصة بفنون الحرب، كما فعل الاغريق بسبارطة والعثمانيون بالانكشارية، والالمان باليونكرز واليابانيون بالسموراي.

ارجو المعذرة اذا قلت اننا يجب ان نواجه هذا الواقع ولا عيب فيه. نحن امة نفضل العيش بسلام والاستمتاع بالحياة، رغم كل ما نسمعه في هذه الايام عن العمليات الاستشهادية والانتحارية. يا ليتنا فهمنا هذا الواقع منذ اول بداية مسيرتنا النهضوية فتبنينا فلسفة غاندي، فلسفة اللاعنف او ما سبق وسميته بالجهاد المدني، بدلا من تبني فلسفة ماركس ونيتشة وموسوليني. النضال المسلح جرنا للوقوع في هذه الكارثة التي تعانيها بلادنا اليوم حيث اصبح حمل الكلاشنكوف امنية الشباب وإطلاق الرصاص على بعضهم البعض مفخرة وطريقة للحياة، تضمنت تدمير المنشئات الوطنية والآثار التاريخية، وسفك دم الابرياء واغتصاب المحصنات ونهب ثروات البلاد وسلب اموال الآخرين.

تسألونني عن المخلص والخروج من هذا المأزق. الايمان بالعنف هو الذي اوقعنا في هذا المأزق. وبالتالي فالخلاص منه يكون باستبدال هذا لايمان بالايمان البديل وهو اللاعنف، الجهاد المدني، الجهاد الأكبر الذي جاء في السنة النبوية. وهذا جهاد يعتمد على الايمان بعائلة الانسان، كلنا اخوة واولاد عم. بهذا المنطلق تحل المحبة محل الضغينة والكراهية، العفو والتسامح بدلا من الثأر والانتقام، وحدة كل الطوائف والمكونات والاقليات بدلا من تنازعها وتقاتلها، واخيرا نبذ البندقية والتسلح بأسلحة الجهاد المدني السلمي للوصول الى اهدافنا واستحصال حقوقنا والنهوض ببلداننا.

العفو دواء وسياسة

بعد فتح مكة تعززت اركان دولة الاسلام واصبح هذا الفتح السلمي لها اساسا للنهج المدني للاسلام كدولة. وسارع النبي صلى الله عليه وسلم الى انتهاج قاعدة " عفى الله عما سلف". وقف وخاطب المشركين فسألهم: ما تضنونني فاعل بكم؟" فأجابوا:" اخ كريم وابن اخ كريم." فقال اذهبوا فأنتم طلقاء. وردتنا امثلة مختلفة من ذلك. جائته هند بنت ابي سفيان لتعتذر وتستسلم. وكانت هند قد خططت لقتل الحمزة ابن عبد المطلب، عم الرسول، ثم مثلت بجثته واكلت كبده ثأرا لأبيها وعمها واخيها. فبادرها قائلا: " هنود اكّالة الكبود؟" فأعطته هذا الجواب البليغ: " انبي وحقود؟" فعفى عنها. سار عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه، هذا المسار في عزل خالد بن الوليد عن قيادة الجيش لأنه قتل مالك بن نويرة بعد استسلامه. وكان من اروع هذه الاحداث الحضارية، ومما خلد في تاريخ الادب العربي العفو عن الشاعر كعب بن زهير الذي سبق وافحش في مهاجمة النبي الى الحد الذي حلل قتله. توسط القوم له فوعده بالعفو. وكان ذلك الحدث الشهير يوم وقف في حضرة رسول الله والقى قصيدته الشهيرة والمعروفة بالبردة وقال فيها:

انبأت ان رسول الله اوعدني

و العفو عند رسول الله مأمول

وقد اتيت رسول الله معتذرا

و العذر عند رسول الله مقبول

و هزت القصيدة الرائعة مشاعر السامعين بما حدى للنبي ان يخلع عليه برده فسميت القصيدة بالبردة واوحت للبعض من جهابذة الشعر العربي بمحاكاتها، ومنهم البوصيري واحمد شوقي في نهج البردة. اصبحت فكرة العفو اداة حكيمة من ادوات الحكم والجهاد المدني الاسلامي. فكثيرا ما وجد الحكام المسلمون ان العفو عن الخصم بدلا من مقاتلته يؤدي لتحويله من عدو لدود الى حليف نصير. وهي الفكرة التي وردت في الآية الكريمة: " ولا تستوي الحسنة بالسيئة ادفع بالتي هي احسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حكيم." (سورة فصلت /34). ولا اشك ي ان الكثير ممن هاجموا النبي وعفى عنهم ساروا بكتائب المسلمين بعد ايام وفتحوا العالم تحت راية محمد.

وقد فطن ساسة العالم فيما بعد الى حكمة هذا المبدأ، كما سأشرح في مقالة لاحقة. وكم من ثوار الامس، كمانديلا، يفرج عنهم ويتفاوض معهم ثم يسلم اليهم الحكم بكل طيبة خاطر. غير ان الاطباء

ايضا اكتشفوا مزايا العفو في المعالجة الطبية. فالغضب والتعصب والعزم على الانتقام يزيد من ضغط الدم وتسارع النبض وضربات القلب وصداع الرأس وزيادة نسبة السكر والكلسترول والحموضة في المعدة. لاحظوا ان بمجرد عفو الانسان عن خصمه، مصافحته واحتضانه وتقبيله، يعكس الآية وتتحسن كل هذه العوارض التي تؤدي احيانا الى الجلطة او النوبة القلبية. وقد عرفنا جميعا عمن لقوا حتفهم وسقطوا موتى على الارض في سورة من سورات الغضب والانتقام والعراك. العفو والسماحة دواء لك يا سيدي ارخص واسلم من الاسبرين.

الجهاد المدني والتاريخ العربي

من الاوهام التي آمنا بها، وصدقنا فيها بعض الغربيون، ان الامة العربية كانت قوة ضاربة لها بطولاتها الخارقة وقدراتها الحربية البارعة. اوقعنا في هذا الوهم نجاحها المذهل في اكتساح العالم من الاندلس الى الصين في نحو نصف قرن. لكن هذا النجاح لم يتأتى من مقدرتها الحربية بقدر ما نتج عن ضعف خصومها. لم يكن هناك من يقف ضدها. فالامبراطوريتان الفارسية والرومية كانتا قد خرجتا من حرب دامية بينهما استغرقت سنين طويلة وارهقتهما كليا. ولم تكن هناك اية حكومة فعالة في شمال افريقيا. وكانت الاندلس مجموعة من الامارات المشغولة في منازعاتها الداخلية. فاجتتاحت الماكنة العربية العالم مثل ابرة في قطعة آيس كريم.

تتميز الشكيمة العسكرية لاية امة في معاركها الدفاعية البطولية وليس في فتوحاتها وغزواتها. هكذا يعتز الاغريق في دفاعهم عن اثينا ضد الفرس، ويعتز الفينقيون في دفاعهم عن قرطاجة، والروس في دفاعهم عن ستالينغراد والالمان في دفاعهم عن برلين. لم يخض اجدادنا اي معارك من هذا النوع. لقد سلموا عروس الشرق، بغداد، وعروس الغرب، غرناطة للاجنبي بدون اراقة قطرة دم واحدة دفاعا عنهما. المعركتان اللتان نعتز بهما، القادسية واليرموك، كانتا معركتي غزو لم تستغرقا غير اربع او خمسة ايام وبأقل ما يمكن من الضحايا. يصف الجنرال غلوب حروب الجاهلية بأنها كانت اشبه ما يمكن بعركات الحارات لا تستغرق غير ساعات قليلة ولا يموت فيها غير بضعة افراد.

تعتز الامم المحاربة بتنظيماتها العسكرية التي تكرس فيها الامهات ابنائهن منذ الطفولة لفنون الحرب والقتال، كما اليونكرز عند الالمان والسموراي في اليابان والسبارطيون عند الاغريق. لم يعرف عن العرب اي تنظيم فدائي ومهني للحرب مثل ذلك. تعاملوا مع الحرب والقتال في اطار الهواة. كانوا يكرهون الحرب ويسمونها بالكريهة. نحن قوم نخشى الموت ونمقته. انظروا لكل هذه المآتم والمواكب الجنائزية وما يصحبها من النحيب والعويل واللطم والدراماتيكيات. لا احد ينافسنا او يبزنا فيها. نحن قوم نحب الحياة ونعتز بها وبالاستمتاع فيها ونتوجع لفقدها. وليس في ذلك اي عيب، بل هو حكمة ومفخرة.

المشكلة هي اننا نحاول ان نتجاهل ذلك ونمني انفسنا بالروح القتالية وفكرة التمسك بالنضال المسلح والاعتقاد بأن البندقية هي الحل. جل ما وقعنا فيه من النكسات في العصر الحديث يرتبط

بهذا الوهم. ما علينا غير ان نتذكرصدام حسين ومحاولاته الرعناء وكل ما نتج منها من خراب لبلده. الايمان بالسلاح والعنف الثوري هو الذي جرنا في الاخير الى شيوع الارهاب بيننا. انه النتيجة المنطقية والحتمية لاعتماد السلاح والقوة. حقيقة تاريخنا تعلمنا بأن من الافضل لنا تحاشي الدخول في منازعات مسلحة مع الغير ومحاولة تصفية مشاكلنا مع الخارج ومنازعاتنا ومشاكلنا في الداخل بالطرق السلمية واعتماد اساليب الجهاد المدني اللاعنفي. يا ليتنا اعتمدنا التعليم الالزامي بدلا من التجنيد الاجباري وكرسنا اموالنا على تطوير بلادنا بدلا من انفاقها على التسلح.

الجهاد جهادان

من الاوهام الكثيرة التي تشوه حياتنا وتعرقل مسيرتنا، الاعتقاد بأن الاسلام انتشر بالسيف ولا شيء غير السيف ولا ينفعنا غير السيف. وفي ظل هذا الاعتقاد ننسى كل الوقائع التاريخية والكلمات المسنودة التي تدحض ذلك. من هذه الكلمات التي اثارت الكثير من التعليقات والتأويلات قول النبي صلى الله عليه وسلم إثر رجوعه من احدى المعارك. قال: " رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر." رغم كل ما قاله بعض علماء الدين فإن ظروف القول (بعد الرجوع من القتال) لا يمكن غير ان تعني بالجهاد الاصغر غير الحرب والقتال. ويبقى الجهاد الاكبر بما يعني مغالبة النفس وتحاشي شرورها. ولهذا قسم بعض الفقهاء فكرة الجهاد الى ثلاثة اقسام: جهاد الكفار وجهاد الشيطان وجهاد النفس. واضاف لذلك ابن القيم " جهاد المنافقين" ومن كل ما راجعته من تأويلاتهم لا يمكنني غير ان احصر القتال في اطار " الجهاد الاصغر". وعندئذ تبقى مغالبة شرور النفس وعمل الخير والصبر على المكروه والدفع بالتي هي احسن وصيانة ارواح الناس من ابواب الجهاد الاكبر، وهو ما يمكن ان نسميه في مفاهيم العصر الحديث بالجهاد المدني. ومن الواضح ان كلمة الجهاد بحد ذاتها مشتقة من بذل الجهد بمعناه العام ولا علاقة مباشرة لها بالقتل والقتال.

لا شك ان كثيرا من الناس سيردون على هذا الطرح بالاستشهاد بآية السيف وغيرها مما يحث المسلمين على مقاتلة العدو. وقد ناقش هذا الموضوع الكثير من العلماء والمفكرون. استشهدوا من الطرف الآخر بالكثير من الآيات المكية التي تؤكد على توخي السلم وتحاشي الحرب والقتال. هناك نحو 124 آية تحث على العفو والصبر والتسامح. " الصبر" الكلمة التي وردت في 103 آية تعتبر من القيم الاسلامية الرئيسية حتى ان بعض المفكرين المعاصرين جنحوا الى استعمال كلمة الصبر كبديل لمصطلح " اللاعنف" Nonviolence. وسأتعرض في مقالة لاحقة لاستعمال الصبر كسلاح فعال من اسلحة الجهاد المدني في مقارعة الخصم.

بجانب فكرة الصبر استوحى الاسلام فكرة الهجرة التي خلدت بذلك الحدث التاريخي الرئيسي في قيام الدين الاسلامي وانتصاره، الا وهي هجرة النبي من مكة الى المدينة. وسبقتها هجرة دعاة الاسلام الى الحبشة. اصبحت هذه الكلمة الثانية التي تشكل ركنا آخر من اركان الجهاد المدني من المفردات الاسلامية التي كثيرا ما ترددت على الالسن والحركات والاجتهادات الاسلامية. وفي التاريخ امثلة كثيرة على المهاجرة كوسيلة سلمية من وسائل مقارعة الانظمة الظالمة القائمة.

بالنظر للمعارك القليلة التي قدر على النبي خوضها، شاعت بيننا فكرة ان الاسلام انتشر بالسيف وبالقوة، رغم ان الاسلام صريح في نفي ذلك. وهذا بعض ما نص عليه القرآن الكريم:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾

من الواضح ان كل هذه الكلمات تؤكد على التعددية، والا لجعلنا الله امة واحدة. والحوار هو السبيل للهداية. والواقع في ضوء ذلك نجد ان كل من يدعون لفرض الدين الاسلامي والايمان بالله بالقوة والارهاب يرتكبون معصية وكفرا بإرادة الخالق. "لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي." ركن اساسي من اركان ديننا. يستطيع اي متتبع للموضوع ان يلاحظ ان دين محمد انتشر في الجزيرة العربية بصورة غالبة بالمفاوضات والدبلوماسية والدعاية والدعوة، وبصورة خاصة، بطرح بديل متقدم وحضاري للحكم. هكذا دخل الاسلام اليمن وعمان والبحرين وغيرها من جهات الجزيرة العربية.
وكانت التجارة في العصور اللاحقة هي السبيل السلمي الذي اشاع دين محمد في اندونيسيا والهند والفلبين والصين وملاييزيا وسائر جهات الشرق الاقصى. ومن الواضح ان التجار لم يأخذوا معهم جيوشا وعساكر غير بضائعهم.

نعم، لقد فتح المسلمون بلاد الاندلس بالسيف ولكنهم لم يفرضوا على السكان اعتناق الاسلام. فلو انهم فعلوا ذلك لما بقي في اسبانيا من المسيحيين من يثب ضدهم ويحاربهم ويخرجهم من البلاد فيما بعد.

الحب او العمل الصالح

تركز المسيحية على المحبة كركن للايمان ويركز الاسلام على العمل الصالح. انعكس ذلك في اسطورتين شعبيتين، سمعت احداهما من جدتي واخراهما من فاغنر. تروي الاسطورة الالمانية التي خلدها فاغنر في اوبراته الشهيرة " تنهاوزر" على التركيز المسيحي على المحبة. كان الامير تنهاوزر يشرف على الزواج ولكنه وقع في حب اللالهة الوثنية فينوس، الهة الجمال وراح يتعبدها. كان ذلك شركا بالله. والشرك، كما في الاسلام اثم كبير. رفضت الكنيسة ان تزوجه بخطيبته. ذهب للقس يعرض توبته ويلتمس الغفران. قال له إثمك من الكبائر ولا احد غير البابا يغفره لك. فراح يزحف على ركبتيه من المانيا الى روما كشأن سواه من الآثمين. قال له البابا اثمك هذا خطير لا يغفره الا الرب. خذ عصاي هذه واغرسها في ارض قاحلة وتعبد وابتهل ليغفر لك. ستعلم ان الله قد غفر لك عندما تراها تورق بالخضرة. فعل ذلك ولكن عبثا فلم تورق. كانت خطيبته قد اقامت على حبه ولم تتزوج بأحد وادركها الموت. وقبل ان تنفث انفاسها الاخيرة ناشدت الرب وقالت ما زلت على حبي لتنهاوزر، فأعف عنه يا رب العالمين. وعندما عاد من تشييع جنازتها وجد العصا مكللة بالخضرة. لقد نال الغفران بالحب.

تروي الحكاية التي سمعتها من جدتي ان لصا مجرما قتل 99 شخصا واراد التوبة. قال له الشيخ. كيف يغفر الله لك بعد كا ما فعلت؟ ولكن اذهب للصحراء وانصرف للعبادة واطلب الرحمة من الله. خذ هذه العصا. اغرسها في الرمل. ستعلم ان الله قد غفر لك عندما تخضر وتينع. فعل ذلك وقضى الايام والشهور دون نتيجة. يئس من رحمة الله وقرر العودة من حيث اتى. ولكنه سمع صراخ امرأة تستنجد. هرع لمصدر الصوت فرأى رجلا يحاول اغتصابها. فكر في الأمر. لقد عاهد الله على التوبة وعدم التعرض لأحد. ولكنه امام هذا المشهد. كيف يترك هذا الرجل يغتصب هذه المرأة البريئة؟ قال لنفسه. لقد قتلت 99 شخصا. فلتكن مائة شخص. هجم عل الرجل وقتله وانقذ المرأة. " اذهبي يا حرمة ولا تعودي لهذي الديرة" قال لها وعاد لمكانه. ويا للعجب! وجد العصا يانعة بالاوراق والزهور. لقد غفر الله له ذنوبه.

"يا ابني خالد، عمل صالح واحد ينفع الناس يعطيك مرضاة الله ويمحي كل ذنوبك." قالت جدتي. ويورد القرآن الكريم شتى الآيات التي تدعم قولها وتحث المسلم على " العمل الصالح".

﴿...إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ...﴾

هناك نحو 65 آية تؤكد على دخول المؤمنين الجنة بالعمل الصالح. وهذا ما سمعته من كثير من المارقين والمارقات. انهم في آخر المطاف سيقومون بعمل صالح كبير يمحي كل ما ارتكبوه من آثام خلال مروقهم. ولن اعجب إذا سمعت بأن كل هؤلاء الحرامية الذين نهبوا الدولة يعولون على ذلك.

الصبر والعذاب

"اهيمسا" كلمة سنسكريتية شاعت في ادبيات الجهاد المدني بعد ان استعارها غاندي لطروحاته. الكلمة فلسفية غامضة ترجمت للانجليزية خطأ باللاعنف nonviolence ومنهم اقتبسناها. انها تعني مزيجا من الصفات تشمل الصبر والمحبة والحقيقة واللاعدوانية.

رأى غاندي ان الرد بالعنف على الظالم والمعتدي لا يغير ايمانه ولكن تحمل اعتدائه بصبر وجلادة، واذا امكن، بمحبة قد يغير ايمانه واعتقاده. ومن ذلك حمل المسلمون الهنود الستياغراهي (اتباع فلسفة غاندي) " الصبر" كشعار لهم. في تحمل العذاب حكمة نضالية وسلاح ماض في التأثير على ظمير الانسان وموقفه. نرى صورا عملية من ذلك في حياتنا اليومية. فعندما ترفض اعطاء الطفل ما يريد تراه يبكي ويلطم صدره ويضرب رأسه ويمتنع عن الاكل فلا تملك غير ان تذعن لطلبه في الاخير. تفعل المرأة مثل ذلك. فعندما يمتنع الزوج عن تلبية ما تريد تأوي للفراش مريضة بشتى الاعراض السايكوسوماتية، وجع رأس، مغص معدة، سخونة وشتى الآلام. سرعان ما يكتشف الزوج ان تلبية مطالبها اسلم له واوفر من تكاليف الاطباء والدواء. وهي لا تقوم بذلك من باب مكر النساء وانما تمارس فصلا من فصول الجهاد المدني، جهاد الضعفاء ضد الاقوياء.

طبق غاندي هذا الاسلوب في حملاته السياسية. من ذلك اضراباته الشهيرة عن الاكل. كان في ذلك يمارس ما يمارسه الطفل والمرأة للحصول على ما يريد. وعندما تعرضت مظاهراته لمهاجمة الشرطة كان يحث اتباعه على عدم الرد على هراواتهم وضربهم. على الستياغراهي ان يقف صامدا امام الشرطي ويبتسم وهو يتلقى ضرباته بجلادة ولا يرد عليها حتى يتدفق الدم من رأسه ويسقط الى الارض مغشيا عليه.

الصبر وتحمل العذاب اسلوب نضالي قديم مارسه الانبياء والاولياء عبر العصور. يشير القرأن الكريم لما كانوا يتعرضون له بهذا الوصف البليغ في سورة البروج: " قتل اصحاب الاخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود." وتعرض النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه رضي الله عليهم، لصنوف من هذا العذاب وتحملوه بمثل ذلك من الصبر. روي ان ام جميل، زوجة ابي لهب، دأبت على قذف القاذورات على بيت الرسول في حين عمد ابو جهل على قذفه بالمصارين واحشاء الخراف التي ذبحت قربانا للاوثان حيثما رآه يؤدي الصلاة. وكلما هم الصحابة على امتشاق سيوفهم للرد على ابي جهل، كان يمنعهم من ذلك. واشار بهم الى ما تعرض له احد

الانبياء من الضرب المدمي وهو يتحمل ما يتلقاه بالصبر. إن الله مع الصابرين.

ربما كان النبي يشير بذلك الى المسيح عليه السلام الذي اعطى خير مثال على تحمل العذاب بالصبر واحتذى به النصارى في تلك المشاهد المريعة في حلبات مواجهة السباع في عهد الرومان حتى اصبح العذاب سنة من التقاليد المسيحية خلدت في روائع من الرسوم والموسيقى.

كثيرا ما يتحول تحمل العذاب الى سلاح ينخز ظمير المعتدي. وقد ابدع غاندي في تحويله الى استعراض إعلامي بالغ التأثير مما سأتناوله في مقالة قادمة.

العصيان المدني ومصاعبه

اللاعنف عند غاندي عملية اخلاقية. انها سلاح الشجعان وليس سلاح الجبان. اظهر ذلك عندما اندلعت الحرب العظمى. دعى زعماء الهند لاستغلال الفرصة لتوجيه ضربة قاضية للاستعمار البريطاني. عارض ذلك واعتبر ركل رجل ساقط على الارض عملية لا اخلاقية. ناشد قومه بدعم الانجليز في حربهم. وكان بذلك قد قامر على الحصان الفائز وليس على الحصان الخاسر مثلنا، المانيا ثم روسيا. نال بذلك تقديرا كبيرا بين الانجليز، بل والعالم كله. اثبت مصداقية ما يقول وشرف الكلمة والنية الحسنة.

ما انتهت الحرب، حتى بادر بمطالبة الانجليز بالاستقلال. وعندما ماطلوا بذلك، دعى الهند للعصيان المدني. ولكن الشعب اساء التصرف بتحويل العملية الى نشاط غوغائي تمثل بالهجوم على المخازن ونهبها وتدمير الممتلكات فسارع الى وقف العملية. اعترف بالخطأ قائلا ان الهنود لم يبلغوا بعد الدرجة الكافية من النضوج للاضطلاع بالعصيان المدني السلمي والشرعي.

كثيرا ما نسمع في عالمنا العربي عن اعلان العصيان المدني او التهديد به دون اي نتيجة عملية. أنه عملية خطيرة ومعقدة، فهو اولا يتطلب استعدادا ودعما قويا جدا من الشعب ونضوجا كافيا. ويستهدف تعطيل الدولة كليا بشتى اجهزتها، الخدمات الصحية والاجتماعية والمؤسسات التجارية والصناعية والتعليمية وحركة النقل وصيانة الامن، الخ. ولكن ماذا تعمل اذا اصيب شخص بنوبة قلبية، او شب الحريق في بيتك؟ او كانت لك بضاعة تالفة في الجمرك؟ من المعتاد لدعاة العصيان المدني ان يتركوا اجهزة طواريء تقوم بالمهمات الخطرة الطارئة ويشكلوا لجان طواريء تسمح او تمنع هذا العمل او لا. هل هذا المريض يحتاج لمعالجة فورية حقا، وهكذا. فضلا عن ذلك، يسبب العصيان المدني اذى كبيرا في الاقتصاد الوطني، ولا سيما اذا استغرق مدة طويلة.

فشلت العملية في الهند واضطر غاندي للجوء الى وسائل سلمية اخرى، وعلى رأسها المفاوضات وإثارة الرأي العام العالمي ومقاطعة البضائع البريطانية. دعاه الانجليزالى لندن للتفاوض. فجائهم ملتفا بقماشه الكادي ومغزله وعنزته. لم يسمع العالم عن زائر يزور بريطانيا ويحظى بمثل ما حظي به غاندي عند مروره في شوارع لندن. اكتضت ارصفة الطرق بألوف المشاهدين يهتفون بإسمه ويغرقونه بالورد وازهارالقرنفل تتساقط عليه من كل جانب. اختضت الحكومة البريطانية العمالية برآسة مكدونلد بما رأوا. الشعب البريطاني مع غاندي ومع استقلال الهند. انه المهاتما، البارع في فن العلاقات

العامة والدعاية. ويعرف كيف تعمل الديمقراطية. استغل هذه الشعبية العالمية خير استغلال بصومه حتى الموت كلما انسدت بوجه السبل فيمسك العالم انفاسه قلقا عليه.

اخذوه لمعامل النسيج في لانكشاير. وكان ذلك اثناء الازمة الاقتصادية العالمية التي ادت لتعطيل هذه المعامل. شكى له رئيس النقابات عما يعانيه عمال النسيج وارتجاه في ان يرفع الحظر في الهند على المنسوجات البريطانية. هناك خمسون الف عامل يعيشون عليها. اجابه غاندي: " وانا عندي ثلاثمائة مليون هندي يعانون من الفقر!"

ما قال ذلك حتى احتلت كلماته في اليوم التالي صدارة الصحف البريطانية

العفو فضيلة وحكمة

الانتقام سنة الوحشية والعفو سنة المدنية، ولكن بين الاثنين ما يمكن تسميته بشعرة معاوية، فإحقاق العدالة واقامة النظام كثيرا ما يتطلب الردع والقصاص ممن يخرج عنه في حين ان العفو يفتح صفحة وفرصة جديدة. الموازنة بين الجانبين اساس الملك وبورك من حظي بها. سبق لمعظم الانبياء ان تحلو بفضيلة العفو. برز منهم هنا السيد المسيح عليه السلام وشاعت بين الناس كلمته الخالدة من ضربك على خدك الايمن فأدر له خدك الآخر. وعندما همّ قومه برجم امرأة زانية اوقفهم وقال، من كان بدون إثم فليرجمها. واصبحت قصته مع العاهرة مريم المجدلية من اروع قصص الايمان والادب والفن. اصبح سلوك السيد المسيح من مصادر الوحي للكثير من رواد الجهاد المدني كتولستوي وغاندي ومارتن لوثر كنغ ومانديلا. " احبب عدوك"، شعارهم الابدي.

سبق لي ان ذكرت بأن القرآن الكريم يحثنا على العفو فيما لا يقل عن 142. وهذه بعض ما ورد منها:

﴿...وَإِنْ تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (التغابن 14)

﴿إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ (النساء 149)

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الاعراف 199)

﴿...وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور 22)

وقد روى الرواة احاديث وسننا نبوية عديدة توازي ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: " ارحموا تُرحموا واغفروا يغفر الله لكم." وايضا في مناسبة اخرى:" ما من جرعة اعظم عند الله من جرعة غيض كظمها عبد ابتغاء وجه الله."

و هكذا اصبحت التوبة والمغفرة من الاسس الرئيسية لعقيدة المسلم. كل هؤلاء الحجاج الذين يفدون الى مكة المكرمة ويقفون على جبل عرفات يحدوهم امل واحد وهو ان يحصلوا على الغفران لخطاياهم. واذا كان الخالق الجبار مستعدا لغفران آثامنا وخطايانا، فما بال المخلوق يتعصب ويصر على العقوبة والانتقام؟ ولنبينا الكريم امثلة رائعة في هذا السياق. كان منها ما تعلق بالزنا الى الحد الذي يجعل اثباته في حكم المستحيل تقريبا، حتى شاعت بين اهل القانون كلماته " هل رأيت الميل في المكحلة؟" من باب التشدد في الاثبات والتخفف عن الخطيئة.

و كانت له مواقفه المشهودة في رفض العنف. رمى بعض المشركين قاذورات عليه لاهانته فجرد

صحابته سيوفهم للانتقام من المعتدي ولكنه نهاهم فورا عن ذلك وقال ما بعثت لأقاتل. وامتدادا لهذا الموقف خالف اصحابه ايضا في عقد صلح الحديبية مع المشركين. اعترضوا عليه لتساهله مع الكفار ولكنه آثر الصلح والسلام على مواصلة النزاع. وكانت البوابة التي فتحت الكعبة للمسلمين مما ادى في الاخير الى شيوع الاسلام في عموم الجزيرة العربية. وكان "فتح مكة" من اهم انجازات النبي في سجل دبلوماسية السلام واللاعنف. وفي قوله " من دخل بيت ابي سفيان فهو آمن" مثل رائع في تجارب العفو.

المعارضون الظميريون

اشتهرت الحرب العظمى (1914–1918) بمعارك قلما شهدت الانسانية مثيلا لها ببشاعتها حيث تقاتل الخصوم، كثير منهم شعراء وادباء وفنانون وموسيقيون كبار، بالسكاكين والحراب في خنادق غارقة بالطين والاوحال والدماء وتحت امطار مستمرة ونيران القنابل المتواصلة. تعرض الكثير منهم للجنون والانهيار العصبي وراحوا يهيمون في الجبهة فاقدين. اعتبرهم قادتهم جبناء وخونة واعدموهم. اثار ذلك حنق الكثيرين. وقد رفض بعض المثقفين واليساريين الاشتراك في القتال بحجة انه يتعارض مع ظميرهم. كان بينهم كثير من وجهاء القوم كاللورد بروكوي. حكموا عليهم بالسجن بتهمة الخيانة. كما تعرضوا لمضايقات الجمهور ممن اعتبروهم جبناء وخونة وراحوا يضربونهم بالحجارة والبيض الفاسد ونحو ذلك.

اعيد النظر بعد الحرب في الموضوع اثر ما افاد به الاطباء بأن ضراوة القتال كثيرا ما توقع المحارب بانهيار عصبي تام. وصرح آخرون بأن هناك من يتعارض دينهم، كالمانونيين والكويكرز والبوذيين، او ظميرهم مع العنف والقتل كالاشتراكيين والانسانيين الذين اعتبروا تلك الحرب حربا امبريالية. وكان يجب اعفاؤهم من الاشتراك في الحرب. إنهم مجموعة المعارضين الظميريينConscientious Objectors. اعيد النظر فيمن اعدموا او سجنوا لموقفهم هذا او لانهيار اعصابهم في الجبهة وصدرت احكام في اعادة الاعتبار لهم. ومن حينها تقبلت الدول الغربية فكرة الاعتراض الظميري للحرب. وعدلت القوانين بحيث يستثنى من التجنيد العسكري والاشتراك في الحرب من كان في هذه الفصيلة. وفي عام 1995 اصدرت لجنة حقوق الانسان التابعة للامم المتحدة قرارا يؤكد على هذا الحق.

بيد ان للموضوع تفرعات وقيود. على المعارض الظميري ان يثبت صدق دعواه. ثم تقرر لجنة عسكرية نوعية اعتراضه وقوته ومصداقيته. فقسموهم الى فصائل. هناك من يعفى كليا من اي شيء يتصل بالحرب. الفصيلة الثانية تقضي بإعفائهم من القتال فقط ولكن عليهم المشاركة بالاعمال غير القتالية، كإسعاف الجرحى والتمريض وإعداد الطعام ودفن القتلى ونقل المعدات والعساكر، ونحو ذلك. وبالنسية للمتدينيين كالمانونيين الذين يتمسكون بملابسهم التقليدية، اجيز لهم الاحتفظ بملابسهم وعدم لبس الاحذية والملابس الخاكي العسكرية.

وهناك الفصيلة التي تعفى من مدة الخدمة العسكرية مقابل تكريس مدة مشابهة في خدمة

الانسانية كمساعدة الشعوب الفقيرة والمتخلفة.

و مما يذكر ان بعض العساكر العراقيين تعرضوا لهذه المشكلة خلال حرب الخليج. كان منهم ضابط من اقربائي. كان يتفقد الجبهة بسيارة جيب مع عدد من الضباط واصابهم صاروخ ايراني مزقهم اربا اربا. بيد ان قريبي نجى بإعجوبة غير انه راح يطوف الجبهة يهيم على وجه فاقدا لوعيه وعقله. قبضوا عليه وحكموا عليه بالجبن والهروب من الواجب! وكذا كان مصير عدد غير قليل من العساكر العراقيين الذين اعدموا لمثل هذا السبب.

يواجه المعارضون الظميريون (غير المتدينين) في اسرائيل مشاكل مشابهة لرفضهم محاربة الفلسطينيين. وكثيرا ما تروي الصحف حكايات مثيرة في هذا الخصوص

الهجرة سلاح جهادي

من اساليب الجهاد المدني التي قلما تخطر للذهن بسبب شيوعها اسلوب الهجرة. وهي وسيلة شاع انتشارها عبر التاريخ. من اول امثلتها كان ما قام به العبيد والشغيلة في روما اثناء عز الامبراطورية الرومانية. سائت احوالهم الى درجة موجعة ولم يلتفت الاشراف لشكاواهم. فتداولوا الامر فيما بينهم وهجروا المدينة ولجأوا الى الجبال المحيطة بروما يقتاتون من عثائها وعشبها. كان الاشراف طبعا يعتمدون عليهم في ولائمهم الصاخبة. وجدوا فجأة الا احد هناك يتولى خدمتهم. اضطروا الى التفاوض معهم ومراضاتهم بالاستجابة لطلباتهم.

و يشيع اسلوب الهجرة بصورة خاصة بين الاديان. والاسلام احسن مثال على ما اقول حتى اصبحت " الهجرة" مبدأ للتقويم الاسلامي وكانت القاعدة التي انطلقت منها الرسالة بذلك الحدث التاريخي الجبار يوم غادر المؤمنون مدينة مكة وهاجروا الى المدينة. وكانت هناك قبلها طبعا الهجرة الاولى الى الحبشة. التاريخ الاسلامي حاشد بقصص الفئات التي اعترضت على الحكم القائم فهاجرت الى ديار اخرى. كذا كان الأمر بين الطوائف المسيحية. ظهرت في انجلترا في القرن السابع عشر مجموعة " التساويين" levellers الذين آمنوا بتطبيق المساواة بين كال المواطنين. اضطهدهم كرمويل واوغل في تقتيلهم فرحلوا الى امريكا. وبما حملوه معهم من الايمان بالمساواة، ساهموا في اشاعة فكرة المساواة في الديمقراطية الامريكية. ورغم كل ما نقوله عن امريكا، فإنها في الواقع اصبحت بوتقة تاريخية لشتى الطوائف المؤمنة بالسلام والتأخي والمساواة. منها طائفة المنونايت التي آمنت بالرجوع الى بساطة عيش السيد المسيح عليه السلام، ومن ذلك رفض حمل السلاح والمشاركة في اي قتال. اضطهدهم الالمان فهاجروا الى روسيا. تعرضوا لنفس الاضطهاد هناك فرحلوا الى امريكا. وهناك استطاعوا تحقيق حق المواطن في رفض المشاركة في الحرب اذا تعارضت مع ضميره وايمانه.

الحقيقة ان الكثير من التحولات التاريخية المهمة التي ساهمت في مسيرة الحضارة العالمية تعود لهجرة طوائف او مجموعات حملت افكارا تقدمية متنورة اضطرتها للرحيل واعادة غرس بذورها في تربة اخرى. ولا ننسى ان نهضتنا العربية ايضا تعود لهجرة الكثير من مفكرينا الى اوربا ابتداء من القرن التاسع عشر بما مكنهم من اعادة الكرة ومقارعة الحكم الاجنبي. ولا يخفى عنا ان ما يجري في العراق اليوم يعود لحد كبير الى هجرة المثقفين للخارج وسعيهم لاسقاط صدام حسين. وكان من افكاري التي استوحيتها من فلسفة الجهاد المدني ان نفعل ما فعله العوام في روما بأن يخرج سائر المهنيين من

العراق ويتركوا صدام حسين ليدبر امره. سرعان ما يكتشف حاجته لهذه الشريحة المتعلمة ويذعن لمتطلباتها. اعتقد ان هذا الزخم الجاري حاليا في هجرة المثقفين العرب للخارج هو نوع متستر من الهجرة من التخلف ومماراساته. المؤسف فيه انه احتجاج اخرس لا ينطق بحقيقته. يحتاج لمن ينطق بلسانه.

تطورت فكرة الهجرة في العصر الحيث فأخذت شكل الاضراب عن العمل او الدرس. بدلا من الهجرة لخارج الوطن يقوم بالهجرة من ماكنته وورشة عمله داخل الوطن. يسحب عمله ويضطر صاحب العمل الى مفاوضته وترضيته.

امش شهر ولا تعبر نهر

كنت اتوقع طبعا اعتراض القراء على ما كتبته عن الصبر والعذاب في اطارالجهاد المدني. كان منهم القراء الافاضل عبد الله الشهري وعمر كريم واياد يونس ومحمد عبد الله. لهم اعتراض وجيه طالما ردده نقاد الجهاد المدني. ينجح هذا الاسلوب ضد حاكم رقيق متنور يحترم القانون. هكذا نجح غاندي ضد الانجليز. اكان من الممكن له لو ان خصمه كان هتلر او القذافي؟

اولا ان الصبر وتحمل العذاب ليس بالسلاح الوحيد في ترسانة اللاعنف. هناك المقاطعة واللاتعاون واللاتآخي والتحدي والتظاهر والاعتصام والعصيان المدني والاضراب بأنواعه المختلفة وبما فيها الاضراب عن الطعام. يضم بعض اللاعنفيين لهذه الترسانة العرقلة والتخريب اللادموي. وقد اضفت في كتابي " نحو اللاعنف" اساليب اخرى لمقارعة حتى اسوء الانظمة الفاشية.

ثانيا ان الجهاد المدني لا ينجح كمجرد بديل للقنبلة في ضرب السلطة. انه فلسفة وطريقة للحياة تقوم على المحبة والايمان بأخوة العائلة البشرية. على المجاهد المدني الا يمارس العنف ضد الآخرين او ضد اطفاله وازواجه او ضد الحيوان او الخضرة او البيئة. عليه دوما ان يسعى لاقناع خصمه بأنه ليس عدوا له وانما اخ يطالب بحقوق انسانية مشروعة ومستعد للحوار والتفاهم.

قد يكون ذلك من عيوب الجهاد المدني فهو يتطلب هذا المستوى من النضوج. وهذا ما جعل غاندي يوقف حملة العصيان المدني في الهند عندما وجد ان القوم اخذوا ينهبون الممتلكات ويحطمونها. قال ان الشعب الهندي لم ينضج بعد لمستوى العصيان المدني، وكل ذلك رغم معتقداتهم البوذية والهندوسية التي تحرم العنف. سيقال هنا ان شعوبنا العربية كذلك لم تنضج بعد للجهاد المدني. بيد ان الفلسطينيين في الانتفاضة الاولى وشباب الربيع العربي اظهروا من الوعي والنضج ما مكنهم من الالتزام بالسلام واللاعنف والتصرف المتمدن.

وكأي مشروع سياسي، لايمكن للجهاد المدني ان ينجح اذا كانت اهدافه غير معقولة وغير ممكنة، كالايمان بإزالة اسرائيل من الخارطة ورمي يهودها في البحر.

يتفوق الجهاد المدني على النضال المسلح في ان الاخير يحتاج للسلاح والمال وهذا يجره للاعتماد على دولة خارجية سرعان ما يقع في مخالبها. فضلا عن ذلك كثيرا ما يؤدي للارهاب والدكتاتورية والحكم الفردي والخسائر في الارواح والاموال. يعلم اصحابه على السرية والمكر والمخادعة والمراوغة والتآمر حتى على بعضهم البعض. وعندما ينجح يعطيك حكما فاشيا فرديا.

الجهاد المدني يفضي الى الديمقراطية لأنه لا ينجح الا بمشاركة مجموع الشعب وفي اطار تعامل ديمقراطي يقوم على المصارحة والحقيقة وليس بعصبة من المغامرين المتآمرين المفطورين على العنف والقتل. وهنا نجد عيبا آخر من عيوب اللاعنف فهو يتطلب مدة اطول فحملة غاندي استغرقت اعواما طويلة في حين ان انقلاب عبد الكريم قاسم والقذافي لم يتطلب غير ساعات قليلة. ولكن قارن يا سيدي القاريء بين النتائج على المدى البعيد.

وهذا ما جعلني استوحي عنوان مقالتي هذه من الحكمة العربية الشعبية القائلة: امش شهر ولا تعبر نهر!

انتفاضة الحجارة

في ديسمبر (كانون الاول) 1987 حدث ان دهس سائق شاحنة اسرائيي عددا من العمال العرب في طريقهم الى مخيم الجبالية في قطاع غزة. كانت اعصاب الفلسطينيين متوترة كعادتها في ذلك الحين، كما في كل حين، فانفجروا في اعمال شغب تضمنت الانتقام بقذف الحجارة على السائق وسرعان ما عمت لكل الجهات حيثما تواجد اسرائيليون. وهكذا بدأ ما يسمى بإنتفاضة اولاد الحجارة.

كانت قد سبقتها انتفاضة اخرى مسلحة ولكنها تضمنت استعمال السلاح مما مكن الاسرائيليين من الرد عليها بالمثل فقمعوها اخيرا بما عرف عنهم من البطش العنيف والانتقام الشرس. يظهر ان الفسطينيين وعوا ذلك فتحاشوا استعمال السلاح هذه المرة وآثروا الالتزام باللاعنف مع استعمال الاولاد في رمي الحجارة على الجنود. وكانت اول صفحة من سجل الجهاد المدني في الساحة الفلسطينية.

شهد هذه العمليات الخبير النرويجي في شؤون اللاعنف البروفسور جين شارب وقدر ان هذه الانتفاضة الثانية كانت 80% لاعنفية. فالقذف بالحجارة على شخص ينطوي على شيء من العنف. وبالفعل ادى الى مقتل عدد من الاسرائيليين مقابل عدد اكبر من الفلسطينيين.

بيد ان هذا الاسلوب الجديد من المقاومة اربك القيادة الاسرائيلية فلم يعرفوا كيف يردون عليه. لم يعد بأيديهم مبرر لفتح النار على اولاد صغار يرمون الحصى. ولم يكن من اللائق للجندي ان يفعل مثل فعلهم ويشارك بما يصبح فعلا لعبة اطفال.

وصل الحنق والغضب في القيادة الاسرائيلية ان صرح اسحق رابين أنهم سيردون على ذلك بكسر ايدي وارجل من يرمي بحجارة على الجيش. ونفذ بعض الجنود ذلك فعلا فكسروا ذراع بعض الاولاد.

قام احد انصار حقوق الانسان الاسرائيليين بتصوير ذلك وبث الصورة عالميا بما احرج الحكومة الاسرائيلية امام الرأي العام العالمي.

لا ادري. ربما ساهمت هذه الانتفاضة الثانية اللاعنفية في حمل حكومة رابين اخيرا على الاستجابة للوساطة النرويجية في الوصول الى سلام دائم مع الفلسطينيين يتضمن منح الضفة الغربية استقلالها، بما يعني وجود دولتين، وهو ما عرف فيما بعد بإتفاقية اوسلو. وبها توانت همة الفلسطينيين في مواصلة الانتفاضة والركون الى آمال اقامة دولة فلسطين.

مما يؤسفني شخصيا على هذا الصعيد، ان بعض الشباب الفلسطيني ممن قرؤا ما كتبت عن الجهاد المدني، دعوني الى الالتحاق بهم لتثقيفهم وتدريبهم على اتباع اساليب هذا العمل اللاعنفي.

بيد ان اسبابا صحية حالت دون تلبيتي هذه الدعوة وحرمتني من المساهمة العملية وليس النظرية فقط في هذا المسعى. تولى هذه المهمة فيما بعد زميلي مبارك عوض ولكن اسرائيل اعتقلته وطردته من فلسطين

بعيدا عن السلاح

ذكرت سابقا كيف التفت الحكومات الغربية على تعاليم السيد المسيح (ع) في رفض العنف بابتداع فكرة " الحرب العادلة". وراحت كل حكومة تفسر حربها وعدوانها وغزوها بأنها تخوض حربا عادلة. بيد ان بعض الفقهاء شعروا بهذه المغالطات والتحايلات فثاروا ضدها وكفروها. كان منهم القس منو سيمون في سويسرا. اكد على رفض العنف بأي صورة. استطاع ان يجمع حوله عددا من المناصرين بما اسفر عن ولادة طائفة دينية جديدة عرفت بالمانونيين في القرن 16. يرفض هؤلاء حمل السلاح والمشاركة في اي عنف ويدعون للرجوع الى حياة المسيح في بساطتها وتكريس حياتهم لمساعدة الآخرين اينما كانوا. رأيت في فلسطين المدرسة والمزرعة التي اقاموها لمساعدة الفلسطينيين ومحاولة إحلال التفاهم والسلام بينهم وبين اليهود في مشاريع مشتركة.

بيد ان السلطات اضطهدتهم في المانيا لرفضهم الخدمة العسكرية فهاجروا لروسيا ولقوا نفس المصير حتى رحلوا الى امريكا واقاموا مستعمرات خاصة بهم. زرت احدها من المتزمتين الذين يرتدون نفس الثياب القديمة ويرفضون استعمال السيارات والراديوات والتلفزيونات وكل مظاهر الحياة المعاصرة. تقضي نساؤهم النهار في حياكة وتطريز الالحفة والسجاد لبيعها في آخر السنة لمساعدة الشعوب الفقيرة.

وفي القرن التالي السابع عشر دعى الكاهن جورج فوكس في انجلترا للتمسك بنفس الفكرة، وهي رفض العنف بكل صوره التزاما يتعاليم السيد المسيح. والتفت حوله جمعية الاصدقاء الدينية التي عرفت بطائفة الكويكرز. ولكن هؤلاء اختلفوا عن المانونيين في نظرتهم العملية وعصرنتهم.. بدلا من النظر للوراء نظروا للامام. اصبحوا يؤمنون بفضيلة العمل والكسب الشريف. يعود لهم الفضل في تأسيس امهات الشركات التعاونية وفتحوا البنوك الكبرى مثل باركليز ولويدز لغرض توفير الاموال والقروض للمحتاجين والعازمين على العمل وفتح المشاريع التعاونية. دعوا لمساواة المرأة ومنع الرق والاستعباد وشرب الخمور وشن الحروب واللجوء للعنف. اخذوا يطلقون على معابدهم " بيت الاصدقاء"، على اعتبار ان كل المؤمنين بالله اصدقاء. لا يوجد قس او كاهن في هذه المعابد بل يستطيع اي واحد من الحاضرين ان يقف ويتلوا خطبة الجماعة او يروي اي موعظة تخطر له. ولا تسمع اي موسيقى او تلاوات او ترانيم فيها. فهم يعتقدون ان السكوت والسكون والتأمل الصامت خير طريقة للعبادة ومعرفة الله ودعم الأمن والسلام. قاموا بعمليات كبرى من اجل السلام وضد الحرب.

اشهرها ارسال سفينة محتشدة بالمتطوعين من كل الشعوب للوقوف في طريق الاسطول الامريكي وعملياته في حرب فيتنام. وكثيرا ما لعب رؤساؤهم بأدوار كبيرة في التفاوض بين الاطراف المتنازعة والمتحاربة لحملهم على فض النزاع ووقف القتال. من مشاريعهم فتح مدارس وكليات في شتى جهات العالم يقوم التدريس فيها على التأكيد على مباديء السلام ورفض العنف وإشاعة روح الاخوة بين التلاميذ.

و قد لقي الكويكرز والمانونيون اضطهادا شنيعا من السلطات والجمهور ايضا بسبب رفضهم المشاركة في الحرب والقتال فاتهموهم بالجبن والخيانة.

عبد الغفار خان والجهادالمدني

بذل غاندي جهودا كبيرة لجر المسلمين الهنود لفكرته عن اللاعنف والنضال اللاعنفي بعيدا عن العنف وسفك الدماء. دعى وآمن بتوحيد كل الاديان وقبول سائر معتقداتها باستثناء ما تناقض مع العقل، كما قال. سعى حتى للتوصل الى الكلمات المشتركة بين الهندوسية والاسلام كالرحيم عند المسلمين وراما عند الهندوس. ودعى الى توحيد اللغتين الاوردو والهندستانية.

كسب كثيرا من الاتباع المسلمين وكان من ابرزهم عبد الغفار خان. زعيم قبائل الباهتان في شمال الهند. ولكنه ترك كل ممتلكاته الاقطاعية الكبيرة لعشيرته وهاجر ليلتحق برسالة غاندي في تعبئة المسلمين للجهاد المدني.

كان من منجزاته تأسيس فرقة الخداي خدمت كار (خدمة الرب) التي بلغ تعدادها في الثلاثينات نحو مائة الف مسلم. اتخذت هذه المجموعة برنامجا سلميا صارما يقوم على المحبة وخدمة الآخرين وتحاشي العنف بكل صوره. يتعين لمن يدخل هذه الفرقة ان يقسم بالله بأن يلتزم باللاعنف والنضال من اجل الوطن والامتناع من الانخراط في اي جيش والابتعاد عن الطائفية والعنصرية وخدمة كل بني الانسان بدون اي تفرقة. واستوحت حركة الخداي خدمت كار المبدأ الاسلامي، طاعة ولي الامر طالما لم يخرج عن طاعة ربه. وكذلك فكرة كلنا من آدم وآدم من تراب فلا فرق بين اجناس البشر او اتباع الديانات المختلفة.

واجه الشعب الهندي هذا الامتحان العسير عندما طالب فريق آخر برآسة محمد علي جناح بانفصال المسلمين عن الهندوس وتأسيس دولتهم الخاصة بهم (باكستان مع بنغلادش). كان ذلك محنة كبيرة لعبد الغفار خان والمهاتما غاندي اللذين كرسا كل حياتهما لوحدة الهند بكل شيعها وطوائفها وقومياتها. دفع ذلك غاندي الى الاضراب عن الطعام في عملية اخرى من عمليات صيامه السياسي الجهادي. وترتب على اعلان استقلال باكستان حدوث شنائع طائفية دموية فضيعة وهجرة مئات الالوف من مسلمين وغير مسلمين من اماكنهم عبر الحدود. وكانت في رأيي، ورأيي سائر المسلمين الذين بقوا في الهند، غلطة فضيعة، فلو ان كل المسلمين انضووا تحت راية دولة الهند الواحدة لشكل المسلمون الاكثرية الآن في الهند ولأصبحت في يد المسلمين اكبر واقوى دولة مسلمة ضاربة في العالم. كانت غلطة وياما غلطنا وغلطنا.

انتهت المحاولة بقيام هندوسي متشدد بالهجوم على غاندي واطلاق الرصاص عليه وقتله على

الفور. رسول السلام واللاعنف يقع ضحية للعنف. ولكن عبد الغفار خان كان اكثرحظا فنجى من محاولة قتله. ولكنه ظل يرفض الاعتراف باستقلال باكستان او يطأ قدمه على ارضها. لم يعد له مكان في هذه الساحة فرحل الى افغانستان لحين من الدهر ثم غادر الى الولايات المتحدة لينهمك في مهمته الجامعية في تدريس ما آمن به من التاريخ السياسي والديني.

طالما سألني القراء لماذا عجزنا عن انجاب رجل مثل غاندي. لقد انجبنا. ها هو واحد منهم، عبد الغفار خان الذي تخلى عن ثروته وإمارته من اجل الجهاد المدني، ولكن عالمنا الاسلامي نبذه مع من نبذ من دعاة اللاعنف.

غاندي والغاندية

راودت افكار اللاعنف والسلامية ذهن رسل الدين والفلسفة منذ عدة قرون ولكنها انحصرت في حماية ارواح الانسان والحيوان من منطلقات روحية وسلبية. غير انها تماشت اخيرا مع ذهنية العقلانية والعلمانية فنشر كانت كتيبا في الموضوع يندد فيه من منطلق فلسفي اللجوء للعنف والحرب ويرسم طريقا جديدا لتفادي الحروب. تبعه في القرن التاسع عشر بعض الكتاب كفكتور هيوغو في فرنسا وتولستوي في روسيا وبرناردشو في بريطانيا. بيد ان طروحاتهم ظلت محصورة في إطار سلبي يركز على تحاشي حمل السلاح والاشتراك في الحرب والقتال. واعطى هذا اللاعنف صفة وسمعة سيئة فاتهموا اتباعه بالسلبية والخنوع والاستسلام والجبن.

استمر ذلك حتى ظهور المهاتما غاندي الذي طور اللاعنف وحولهه الى جهاد مدني عملي يتضمن النضال الفعال من اجل حقوقك. وبوحيه ظهر مفكرون ورواد، كالبروفسور جين شارب في امريكا توسعوا في الاسلوب فطوروه الى نوع شبيه بالحرب ولكن بدون حرب. هناك الآن مئات منهم يقومون بتدريب المجاهدين وتثقيفهم وتعليمهم على "اسلحة" الجهاد المدني، كالمظاهرات السلمية والاضرابات والاعتصامات والصيام والتحديات والمقطاعات والمناوشات اللاعنفية والعصيان المدني. حدثت بعض الاختلافات بينهم. نعم لتحاشي سفك الدماء ولكن ماذا عن التسبب بأضرار في الممتلكات والخدمات الاساسية للشعب؟

انحدر غاندي من اسرة دينية ارستقراطية محافظة واتبعها في تقبل الاستعمار البريطاني ووالهيمنة الغربية وحضارتها. درس القانون في اكسفورد وذهب لممارسة المحاماة في افريقيا الجنوبية. وهناك واجه التمييز العنصري ضده كرجل اسمر يحرم عله الدخول في شتى الاماكن والركوب مع البيض في الحافلات. لاحظ ان الحضارة الغربية التي آمن بها مقصورة على البيض وتحرم السود والملونين من امثاله رغم كل ثقافته وخلفيته. شق عليه ان يرى النظام يحرم اخوانه الهنود من الدخول في شتى الاماكن. فتولى قيادتهم في عمليات تظاهرية تحدى بها السلطات في إطار القانون. ومن هذه المبادرة الآنية اكتشف سلاح الجهاد المدني في مقارعة الظلم بصورة شرعية لاعنفية. ادرك ان الموضوع اوسع من ان ينحصر في حقوق هذه الاقلية الصغيرة من الاسيويين في افريقيا الجنوبية، فعاد الى بلده في الهند ليشرع في تلك العملية الواسعة التي تحدت الأسد البريطاني في اهم ساحة من عالمه الامبراطوري.

كان غادي قد اطلع في بريطانيا على تعاليم السيد المسيح والكنيسة المسيحية وما كتبه تولستوي في رواياته وكتاباته واعماله، وتأثر بكل ذلك. وبعين الوقت، ادرك كخريج قانون من جامعة اكسفورد مدى اهمية احترام القانون والنظام والشرعية عموما. ومن هذه المنطلقات رسم خارطة الطريق لما سماه بالاهمسة (اللاعنف والمحبة). وبدأ بجمع المناصرين لحملته وإعدادهم للعملية الخطيرة التي تنتظرهم والتي قادت في الاخير الى استقلال الهند، المع درة في التاج البريطاني، ومن ثم تفتت الامبراطورية وانسلخت مستعمراتها واحدة بعد الاخرى، كما سأتناوله ادناه .

تحدثت عن المهاتما غاندي وكيف اوحى له التمييز العنصري في افريقيا الجنوبية بتبني فكرة النضال اللاعنفي، الجهاد المدني. درس جل ما كتب في الموضوع، ولا سيما ما كتبه تولستوي وتعاليم السيد المسيح(ع). عاد للهند ولاحظ روح الخنوع والاستسلام الذي ساد فيها. كيف يمكنه ان يغير ذلك ويغرس فيهم العزيمة على التحدي والرفض؟

فتح كمحام قدير مكتبا للمحاماة وخصصه لمعالجة قضايا الفلاحين وكل من تعرض للحيف والظلم. شرح لهم حقوقهم من الوجهة القانونية وعرض عليهم التوكل عنهم مجانا لاستحصال حقوقهم. وبعد نجاحه في سلسلة من هذه الدعاوى اخذوا يلتفون حوله ويرون ان بإمكانهم فعلا تحدي السلطة والاقطاعيين وكل اصحاب الجاه. تعاطف معه القضاة الانجليز واثنوا على مجهوده في مناصرة الضعفاء والمظلومين. كان هذا مقدمة لنيل الشعبية وثقة الجمهور به، فاستطاع ان يعبئهم لما هو اوسع واخطر من ذلك.

كانت بريطانيا قد احتكرت تجارة الملح، المادة الضرورية للطبخ في الهند. وعانى فيها الناس من اسعار هذه المادة التي احتكرتها الشركات البريطانية. فشجع اتباعه على كسرهذا الاحتكار باستخراج الملح من ماء البحر. لم يكن في القانون ما يحرم ذلك. فدعى الجمهور للسير من كل القرى والمدن في تظاهرات سلمية نحو البحر والانهماك في استخراج الملح من مائه. وفي هذا الاطار الشرعي كسر احتكار الشركات لتوريد الملح. ثم توجه بمظاهراته لتحدي السلطة في دخول المناطق المحرمة على الهنود. " هذه ارض بلادي ومن حقي ان امشي عليها". ادى ذلك الى مصادمات مع الشرطة. ولكنه علم اصحابه على عدم الرد بالعنف على عنف الشرطة. عليهم التمسك بمبدأ الاهمسا (اللاعنف والمحبة). وراحت الشرطة تهوى بهراواتها على المتظاهرين الساتياغراها، ويتلقونها بصبر وعزيمة، بل وبمحبة. يسقطون على الارض مغمى عليهم. فيحل محلهم آخرون وتستمر العملية التي هزت صورها الرأي العام العالمي وتناقلتها الوكالات. كانت ظاهرة لم ير العالم مثيلا لها من قبل.

قاد مظاهرات اخرى لأغراض اجتماعية، مثلا دخول الاراضي المقدسة التي حرمها رجال الدين على المنبوذين. ثم اخذ يوجه المظاهرات بجانب القرى الاسلامية ليجر المسلمين للمشاركة مع اخوانهم الهندوس، مما نجح فيه تماما لغرض ازالة التفرقة الطائفية بين الهنود.

كان غاندي بارعا جدا في الاعلام والعلاقات العامة فحرص على جذب الاعلاميين ووكالات الانباء وتخطيط عملياته بما يعطي مناظر مثيرة. ادرك دور الرموز والرمزية في اثارة العواطف. ففي حملته لمقاطعة البضائع الاجنبية والاعتماد على الصناعة الوطنية، دعى لغزل الصوف يدويا ونسج قماش الكاد البسيط ولبسه واكل المنتجات المحلية فقط. جعل من نفسه مثالا لذلك. كثيرا ما وقف امام الكاميرات، متوزرا بقماش الكاد الابيض وبيده المغزل وبجانبه عنزته التي يعيش على حليبها وجبنها.

فلسطين والجهاد المدني

بالرغم من ارتباط النضال الفلسطيني بالعنف،على الاقل حتى الثمانينات عندما اعلن عرفات نبذ الارهاب، فقد كان هناك دائما جانب سلمي بنّاء يقوم على اسس الجهاد المدني. بدأ ذلك في1890 عندما انتبه الفلسطينيون للخطر الصهيوني فنظموا عريضة بخمسمائة توقيع الى السلطان يحتجون فيها على ممالأة الوالي للصهاينة ويطالبون بإصدار فرمان يحرم نشاطهم. انتبه القوم فورا للخطر ففطنوا لاهمية تعليم الجمهور وتوعيتهم. فتحوا المدارس والكليات واصدروا شتى المطبوعات. وهكذا بدؤا بالحرص على التعليم، الخط الذي استمر حتى اعطى الفلسطينيين الآن اعلى نسبة من حملة الشهادات العالية واقل نسبة من الامية بين كل الاقطار العربية. بلغ هذا الحرص ان ثوار 1936 كانوا يخرجون من معاقلهم ويتسللون للمدينة لمجرد دفع حصتهم من كلفة المدارس.

بعد تصريح الحاكم البريطاني بعزمه على تنفيذ وعد بلفور، رد الجمهور في 1920 بمظاهرات صاخبة في سائر المدن للمطالبة بحق تقرير المصير. تركت حملة غاندي في الهند بصماتها على رواد الحركة فاقتبسوا الكثير منها كاستعمال الرموز الجهادية برفع الاعلام السوداء والاشارات الحدادية واستعمال اساليب المقاطعة والاضراب وغلق الدكاكين وعدم التعاون مع السلطات. وعندما زار بلفور القدس عام 1925 قابلوه بالصمت وعدم السلام عليه فسار في شوارع خالية. تأسست الاحزاب والجمعيات الوطنية التي سهرت على مقاطعة البضائع الصهيونية وعدم انتقال الاملاك اليهم.

كان من مآثر الحركة التلاحم التام بين المسيحيين والمسلمين فكان الجمهور يستمع للخطب الوطنية من منابر المساجد والكنائس وعندما خرج المصلون من المسجد الاقصى ساروا بمظاهراتهم الى كنيسة اللاتين لينظم اليها اخوانهم النصارى لتواصل المظاهرات التي تجاوزت الالوف وراء الائمة والاساقفة والرهبان. هكذا وضع الفلسطينيون منذ اول مسيرتهم السياسية اسس التفاهم والتآخي الاسلامي المسيحي الذي بقي راسخا حتى اليوم، خلافا لما جرى في دول عربية اخرى. وتشير النصوص الى تفهم حكيم للمشكلة فقد ميزوا بين اليهود والصهاينة في ادبياتهم منذ البداية.

تبنى جمال الحسيني في المؤتمر العربي الفلسطيني السادس(1923) فكرة الامتناع عن دفع الضرائب، " لاضرائب بدون تمثيل" (اساس الديمقراطية الغربية). بيد ان الاعضاء تخوفوا منها، فلم ينفذ القرار. وبقي حزب الاستقلال يتردد بشأنها خوفا من تفجر الاوضاع وقيام ثورة. اكتفوا بالتصويت على مقاطعة حفلات الحكومة ومآدبها.

بتفاقم الاحوال، تألفت جماعات من الشباب عام 1931 تنادي بالعصيان المدني وعدم دفع الضرائب. تبنت بعضها لأول مرة اسلوب الجهاد المسلح. وهو طبعا مما ادى في 1936 الى اندلاع الثورة الفلسطينية ودخول السلاح في الساحة وصولا الى عمليات الارهاب والعنف.

بدأت في العشرينات تقاليد اللائات الشهيرة. " لا" لكل شيء. فكلما عرض الانجليز مشروعا لمجلس مشترك (1922 ثم 1923، و1937) قابلته القيادة الفلسطينية بالرفض. اصدروا فتاوى بتحريم دخول المساجد او الدفن في المقابر الاسلامية على اي شخص يشارك في هذه المجالس. واعتقد ان هذه السلبية ساهمت في الأخير بضياع فلسطين.

اشير بمن يهمه الاطلاع على تفاصيل كل ذلك بمراجعة ما كتبته في الفصل 5، قسم 2 من الموسوعة الفلسطينية.

النكتة اداة من ادوات الجهاد المدني

عقد في الاردن قبل سنوات قليلة مؤتمر عالمي عن اللاعف. حضرته والقيت فيه ورقة اعددتها في الموضوع. وكان مما اقترحته نبذ استعمال كلمة اللاعنف التي توحي للسامع العربي بالاستسلام والسلبية واستبدالها بكلمة " الجهاد المدني". فهي كلمة مستوحاة من تراثنا الديني وفكرة الجهاد في الاسلام، ولكنها هنا حصرا في اطر الجهاد السلمي اللامسلح واللاعنفي. يسرني ان اقول ان الكثيرين قد اخذوا بهذا الاقتراح والاصطلاح. وكان ممن تبناه الزعيم السوداني الكبير الصادق المهدي الذي دعى كذلك الى النضال والمقاومة ولكن بدون عنف او استعمال للسلاح.

و يظهر ان الاصطلاح قد شاع عالميا ايضا وحتى بين غير المسلمين او الناطقين بلغة الضاد. فقد اصدرت مؤخرا دار نشر بلغريف مكملان الامريكية كتابا بعنوان Civilian Jihad (الجهاد المدني) ضمن سلسلتها Civil Resistance (سلسلة المقاومة المدنية). شارك في الكتاب فريق من كبار المفكرين والاكاديميين والمجاهدين العرب والمسلمين الآخرين. كنت واحدا بينهم ساهمت بفصل بعنوان " الفكاهة والمقاومة في العالم العربي والشرق الاوسط الكبير".

فمما يغيب عن انتباه قراء هذه الزاوية هو انني لا اقصد من ورائها ومما تتضمنه من فكاهة مجرد دغدغة مشاعر القراء وتمتيعهم وتسليتهم. انني كاتب ملتزم وصاحب رسالة، وفي جل ما اكتبه من فكاهات، روايات، مسرحيات، قصص قصيرة او مقالات، هناك فكرة استهدف النظر اليها ومعالجتها. وهذا كله جزء من ايماني برسالة الجهاد المدني. النكتة سلاح من اسلحة الجهاد المدني. فلنستذكر ما قاله كامل الشناوي في هذا الصدد:

"كانت النكتة السلاح السري الهدام الذي استخدمه المصريون ضد الغزاة وقوى الاحتلال، كانت المخرب الذي خرق قصور الحكام، واقتحم حصون الطغاة، فأقلق راحتهم وملأ قلوبهم رعبا."

بيد ان غرض النكتة ليس في الدرجة الاولى اقلاق راحة الطغاة. انها اوسع من ذلك بكثير. انها نوع من الانترنت تنقل الافكار بين المواطنين فتتداول بينهم بصورة سلمية شفاهية وفي كثير من الاحيان في منأى من يد المخابرات. وهي تعطي استبيانا مجانيا وعمليا عن موقفهم وافكارهم. وبعين الوقت تشد من عزيمتهم وشعورهم بالانتماء والانتماء لمجموع الشعب وما يريده الشعب. انها تمزق روح اليأس والوحدة التي يحاول الطغاة احاطة قلب المواطن بها. وهي بعين الوقت تخفف عن المواطن محنته واوجاعه وتمكنه من الاستمرار والصمود.

النكتة والفكاهة والسخرية ادوات من ادوات الجهاد المدني. والجهاد المدني هو ترسانة المقاومة والتحدي السلمي بعيدا عن السلاح والارهاب وسفك الدماء وهدم المنشئات وتبديد ثروات الوطن. يشك البعض في جدواه فيتحمسون لأخبار الانفجارات والرصاص والقتل ولكن التجارب اثبتت ان الجهاد غير المسلح يعطي على المدى البعيد نتائج انجع واعمق واقل كلفة واسلم لحياة المجتمع وبناء مستقبله وضمان استقراره بشكل صحي سليم غير مشوه ولا مشحون بمشاعر الثأر والحقد وكره الآخرين. وكله موضوع يشغلني مرارا.

من بوذا الى عيسى (ع)

تعتبر البوذية من اكثر المذاهب غير الالهية تطرفا ضد العنف. تعود تعاليمها الى الحكيم بوذا(المتيقظ) الذي ظهر قبل نحو الفين وخمسمائة سنة في شمال الهند، ومنها انتشرت تعاليمه الى الصين واليابان وجنوب آسيا. اخذت تعاليمه شريعة الدارما التي تحث على التمسك بالحب وتحاشي اي عنف او حمل الاحقاد ضد اي عدو او ايذاء اي مخلوقات حية. يقولون: حتى اذا قام لصوص بقطع اطرافك فعليك الا تأخذ اي موقف معاد لهم.

ادى هذا الموقف الى الكثير من المناقشات بين البوذيين خلال الحرب الفيتنامية. فرغم ان البوذية تعطي الراهب حق الدفاع عن نفسه، فأنها تحرم عليه قتل الخصم. طرحوا هذه المعضلة في اطار الحرب الدموية الجارية في فيتنام على كبير فقهائهم ناهت هان. سألوه ماذا اذا تعرضت للقتل؟ اتتقبل ذلك؟ قال نعم لأن الاساس هو الحفاظ على مفهوم الدارما. سأموت ولكن الدارما ستبقى وتنتصر.

بقيت البوذية محصورة في شرق آسيا اما في منطقة البحر المتوسط فقد ترددت الفكرة على لسان السيد المسيح عليه السلام، كما افصح عنها في خطابه الشهير على جبل الزيتون. شاعت بين الناس كلماته اذا ضربك احد على خدك الايمن فأدر له الاخرى. وسار في مساره الحواريون وقادة الكنيسة من بعده. اصبح محرما على المسيحي ان يحمل السلاح ويقاتل الآخرين. سجل التاريخ مواقف خالدة على هذا الغرار. تفجرت المشكلة عندما اخذ كثير من الرومان يدخلون دين المسيح. فلم يعد بإمكانهم مواصلة مهمتهم كجنود فاتحين لهذه الامبراطورية الضاربة الاكناف. هكذا اجاب الضابط الروماني مكسمليان على نداء الواجب العسكري فقال، انا مسيحي وعليه فأنا لا اقاتل. وعندما اعتنق القائد مارسيلوس الدين المسيحي، جمع جنوده ونزع دروعه وسلاحه والقى بها على الارض امامهم وقال انا الآن كمسيحي لا يجوز لي ان اقودكم.

خلق ذلك مشكلة للادارة فبادرت الى اضطهاد المسيحيين وتحدتهم بأن القت بهم في حلبات مصارعة الاسود وابطال الكلاديتر. قالوا لهم دافعوا عن انفسكم. حصلت مشاهد مروعة خلدت في التاريخ عندما رفضوا بالفعل الدفاع عن انفسهم ومقاتلة الخصم. وخلال ذلك صدرت شتى الفتاوى من قادة الكنيسة تدعم هذا الموقف وتشد على يد المسيحيين في التمسك بأسس المحبة والسلام.

غير ان الامبراطور قسطنطين قرر اعتناق هذا الدين الجديد وفرضه على المواطنين. ولكنه هنا خلق مشكلة للسلطة. فهذه امبراطورية عليها ان تحمي كيانها وحدودها. فكيف تفعل ذلك بدون جيش

وعساكر مستعدين للقتال؟ وكالعادة استطاعت السلطة ان تستحصل على فتوى من رجال الدين تحل لها المشكلة. نعم المسيحي لا يقاتل. ولكنه يقاتل اذا كانت الحرب حرب عادلة. وهكذا ظهر مفهوم " الحرب العادلة" في افق السياسة الاوربية. وكلها ذرائع لتبرير الحرب. الالمان يعلنون الحرب على الانجليز من اجل العدالة والانجليز يحاربونهم في حرب عادلة من اجل الديمقراطية، الفرنسيون يغزون المغرب العربي من اجل نشر المدنية. بيد ان مسيحيين آخرين رفضوا هذه اللعبة كليا.

الجهاد المدني ضد الاحتلال النازي

بعد ان اجتاحت قوات هتلر عموم ا لقارة الاوربية، استفاقت شعوبها من هول الصدمة فتطوع الشباب للرد عليه فيما سمي باالحركة التحت الارضية Underground Movement. انقسمت هذه الحركة الى جبهتين: المقاومة المسلحة والمقاومة المدنية، وهو ما اسميه بالجهاد المدني.عمل كل من الطرفين باستقلال تام ع عن الاخر. فمن الخطأ جدا الخلط بين الاثنين. سألواالقادة الالمان بعد الحرب، اي الجبهتين عانيتم منها اكثر من الاخرى. قالوا مشكلتنا كانت مع المقاومة ا لمدنية. فنحن عسكر ونعرف ماذا نفعل بمن يحمل سلاحا ضدنا ولكن ما ذا نفعل بامرأة عجاوز تعترض دبابتنا وتؤنبنا وتتحدانا؟

استطاع هتلر ان يحصل على حليف في النرويج بإسم كوزلنع، يشاركه فلسفته العنصرية ونصبه رئيسا للحكومة فسعى هذا لنشر الافكار النازية. طلب من كل المعلمين ان يدرسوا افكارها لتلاميذهم وأن يوقعوا على عهد بذلك. رفض المعلمون طلبه بل واحرقوا امام التلاميذ هذا العهد. واصبحت مبادرتهم بداية لحملة ضده وشاع اسم "كوزلنغ " كمرادف في اللغة للخيانة والعمالة. وعندما حاول الالمان التآخي معهم بترتيب سباق كرة مع فريق نرويجي، حضر الفريق الالماني للساحة ولم يجد فيها اي نرويجيين.

قادت الدانمرك هذا النوع من ا لمقاومة ا لسلمية. استعملوا ما سموه بإسلوب الكتف البارد. لا تبتسم بوجه الجندي النازي. وإذا سلم عليك، فلا ترد عليه السلام وتظاهر انك لم تسمعه. اذا كلمك فأجبه باللغة الدانمركية. اجعله يشعر بأنك لا تحبه ولا تحب وجوده في بلدك. اذا اقتضى عليك ان تكلمه فكلمه ببرود وفي حدود الرسميات والواجب. اذا كنت في مقهى او مرقص ودخل ليجلس، فاترك المكان. اذا كنت امرأة ودعاك للرقص فأعتذري بأنك متعبة او لا تعرفين الرقص. على قائد الاوركسترا ان يتوقف من العزف او يعزف قطعة حزينة يكرهها الالمان. اخرجوا من المحل واحد بعد الآخر حتى يجد نفسه جالسا لوحده. اذا قدم لك سيجارة او كأسا من النبيذ فاعتذر وقل انك لا تدخن ولا تشرب النبيذ. اذا سألك عن عنوان فتظاهر انك لا تعرفه، او وجهه في الاتجاه الغلط.

الفكرة من اسلوب الكتف البارد هي نسف اعتقاد الالمان بأنهم جاؤا كمحررين وانهم والدانماركيين والنرويجيين شعب واحد، اولاد عم. يحبون بعضهم البعض.

بيد ان المقاومة السلمية اخذت لونا آخر في فرنسا، اكثر عدوانية وهجوما. اصدروا مجلة سرية

تعلم الناس على اساليب الجهاد المدني. غيروا اتجاه اشارات المرور. اجعلوا الاشارة لبوردو تشير الى الشمال بدلا من الاتجاه الصحيح للجنوب. اذا سألك قائد قافلة عسكرية عن الطريق لبلد، فاجعله يسير في الاتجاه المعاكس. اذا جائك بسيارته لاصلاحها، فاصلح الخلل ولكن اخلق فيها خللا اخطر. اذا سألك عن عنوان فوجهه لطريق يلقي به في البحر. حيثما تستطيع، حرك قضبان السكة الحديدية بحيث تجعل القطار الالماني ينقلب.

مؤلفات الكاتب

من شارع الرشيد الى اكسفورد ستريت (قصص قصيرة)

تحت ظلال البطالة (مسرحية)

الساقطة المتمردة (نقد ادبي)

نحو اللاعنف

تكوين الصهيونية

الجذور التاريخية للعنصرية الصهيونية

اليهود اللاصهيونيون

المقاومة الفلسطينية المدنية

هموم مغترب

صباح الخير

الشعراء في اخوانياتهم

دليل المواطن للجهاد المدني

فكاهات الجوع والجوعيات

تأملات في الديمقراطية

نحو اللاعنف

السخرية السياسية العربية

الحكم غيابا

فلسطين عبر العصور

من جد من لم يجد (رواية)

التجربة الديمقراطية في عمان

على ضفاف بابل (رواية)

بغداد القديمة – انا وجدتي (رواية)

ما قيل وما يقول (قصص ساخرة)

ايام فاتت (مقالات)

حكايات حب وغرام (قصص قصيرة)

الظرف في بلد عيوس

تحت ظلال البطالة (مسرحيات)

الساقطة المتمردة

من شارع الرشيد الى اكسفورد ستريت (قصص قصيرة)

Verdict in Absentia

Palestine in Retrospective

The New Statesman and the Middle East

Checkpoint (Plays)

The Prostitute in Progressive Literature

Whither Israel ?

Tomorrow is Another Day (Novel)

Tales from Old Baghdad (Novel)

Arab Political Humour

By the Rivers of Babylon (Novel)

Theatre of Commitment

The Democratic Experiment in Oman

Arabian Tales– Baghdad on Thames

(Short stories)

The Barrel (Plays)

Time in Iraq and England– aut–obiography

انتهى

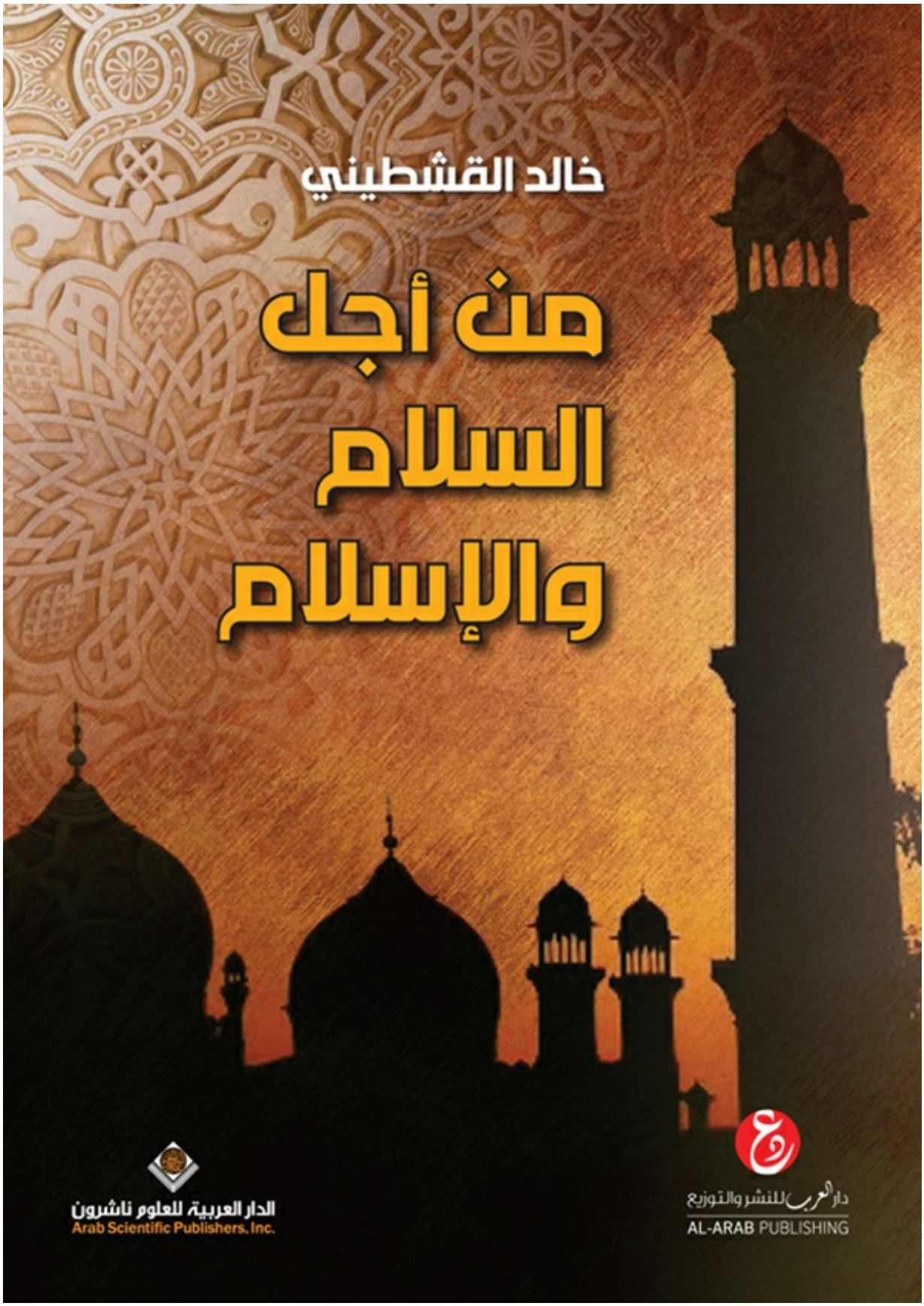
خالد القشطيني
من أجل السلام والإسلام
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
دار العرب للنشر والتوزيع
AL-ARAB PUBLISHING